مغامرات السندباد البحري

المغامرات العشرة

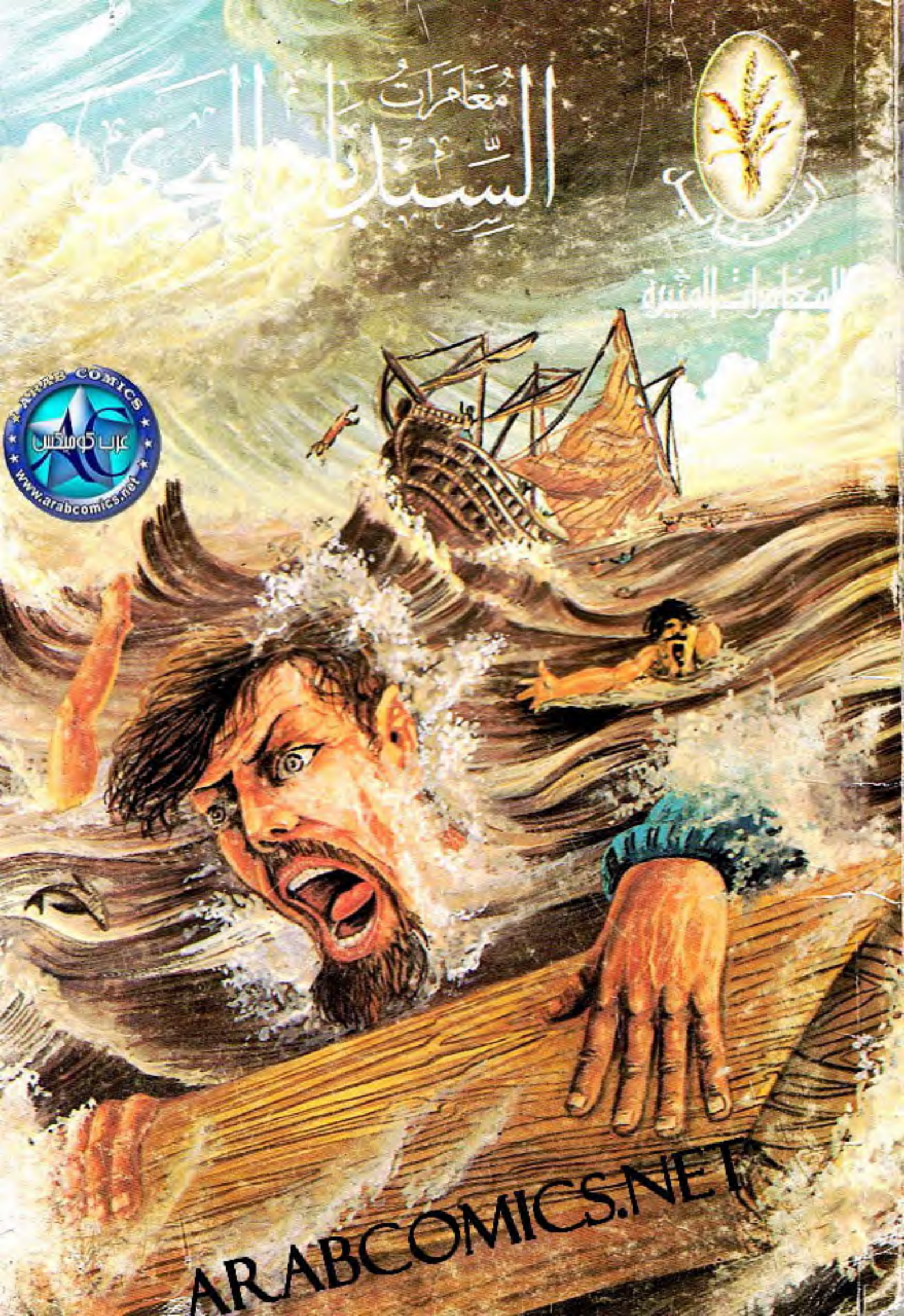

ARABCOMICS.NET

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

جميع الحقوق محفوظة : لايجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٤ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٩-٥٢-١٤٤٥-٩٧٧ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

المغامرات المثيرة

مُغَامَرات السِّنْدباد البَحْري

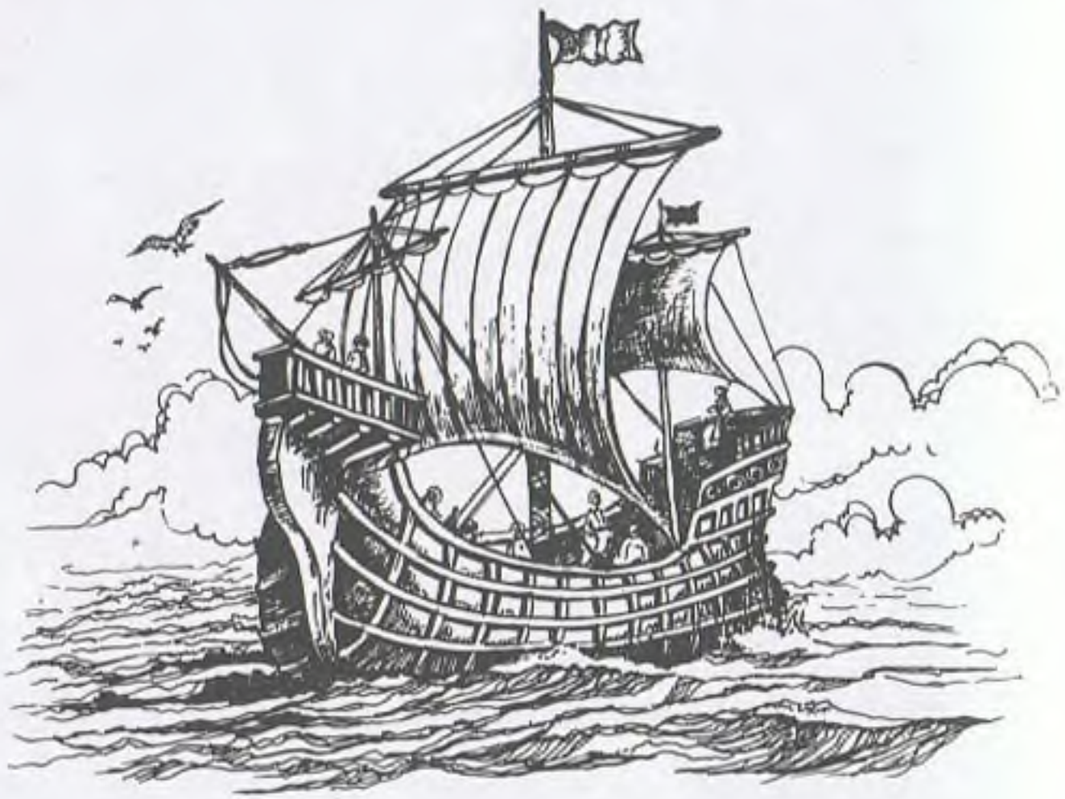

إعداد : حَامِد عَلي عَطَاري
رُسُوم : دُوغلاس پوسْت
غلاف : حَسَن عَبد السَّتار

مَكتبَة لبنَان
بَيروت

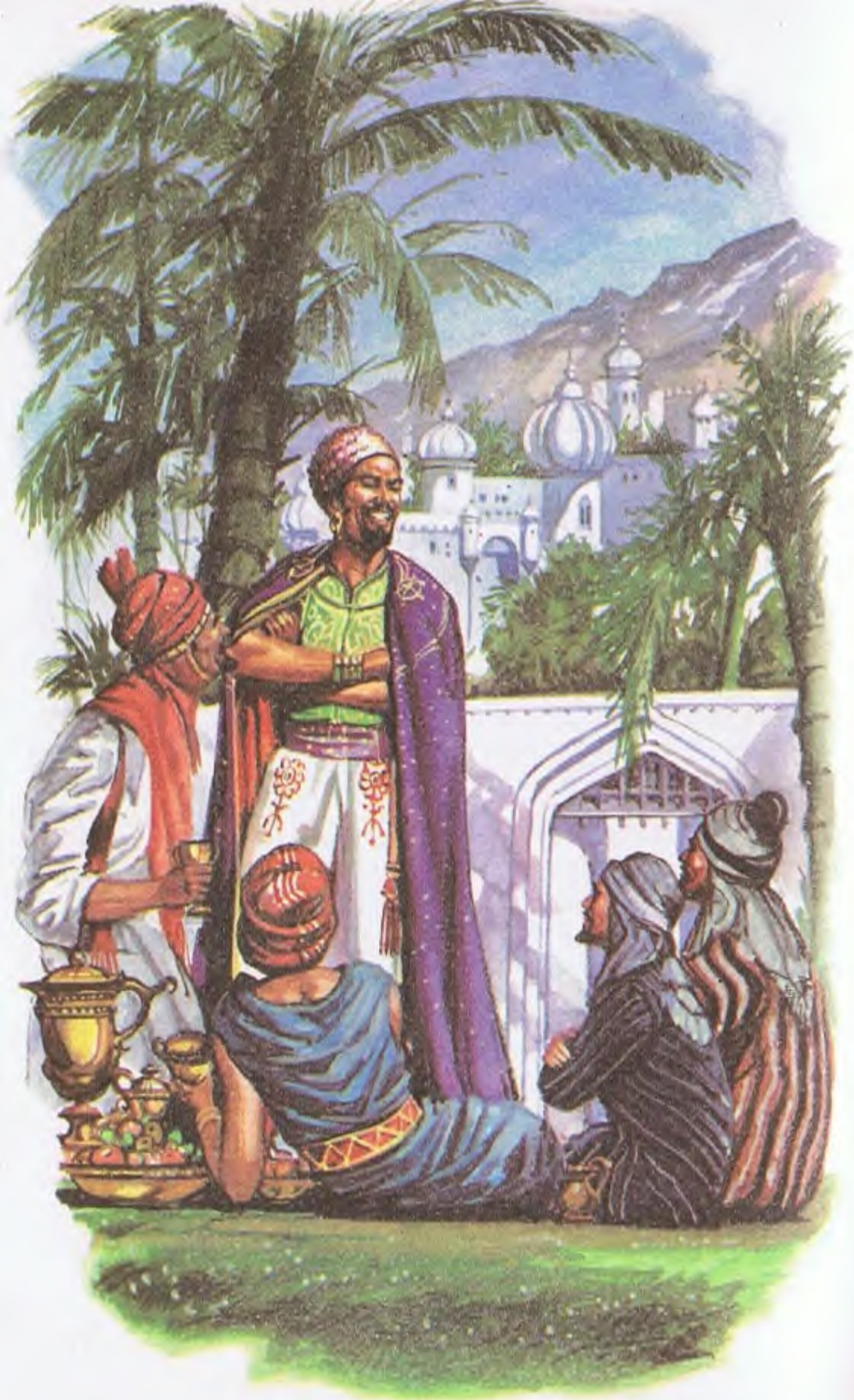

الرِّحْلةُ آلأُولى

عاشَ آلسِّنِدبادُ آلبَحْريُّ بِمَدينةِ بَغْدادَ ، في عَهْدِ آلخَليفةِ هارونَ الرَّشيدِ . وَكانَ واسِعَ آلثَّراءِ ، يُقيمُ في بَيتٍ فَخْمٍ في أَرْقى حَيٍّ مِنْ أَحْياءِ آلعاصِمةِ . وَكانَتْ تُحيطُ بِبَيتِهِ حَديقةٌ رَحْبةٌ غَنَّاءُ ، أَشْجارُها باسِقةٌ ، وَرَياحِينُها فائِحةٌ . وَكَثيرًا ما كانَ يَجْلِسُ هوَ وَأَصْدِقاؤُهُ في ظِلالِ أَشْجارِ تِلْكَ آلحَديقةِ كُلَّما اشْتَدَّتْ حَرارةُ آلجَوِّ . وَها نَحْنُ نُوردُ قِصَّةَ آلمُغامَراتِ بِلِسانِ صاحِبِها ، يَرْويها لِأَصْدِقائِهِ . لِنَسْتَمِعْ إِلَيْهِ :

« إِنِّي ثَرِيٌّ آلآنَ ، وَلٰكِنِّي لَمْ أَكُنْ كَذٰلِكَ دائِمًا ؛ بَلْ جاءَ عَلَيَّ وَقْتٌ كُنْتُ فِيهِ فَقيرًا جِدًّا ، لا أَعْرِفُ لِلسَّعادةِ مَعْنًى . وَفي رِحْلَتي آلأُولى صادَفْتُ آلأَهْوالَ ، وَاحْتَمَلْتُ آلمَشَقَّاتِ ، وَانْتابَتْني آلمَخاوِفُ . وَإِلَيْكُمْ قِصَّةَ آلرِّحْلةِ آلأُولى . »

كُنْتُ آنَذاكَ شَابًّا طائِشًا ، شَأْنَ أَمْثالي مِنَ آلشَّبابِ آلَّذين يُبَدِّدونَ آلمالَ وَآلوَقْتَ هَباءً . وَلَمَّا ساءَتْ بي آلأَحْوالُ ، أَقْنَعْتُ نَفْسي بِضَرورةِ آلعَمَلِ لِلْحُصولِ عَلى آلمالِ . وَلِتَحْقيقِ ذٰلِكَ بِعْتُ بَيْتي وَما أَمْلِكُ لِقاءَ ثَلاثةِ آلافِ دِرْهَمٍ ، اشْتَرَيتُ بِها أَنْفَسَ آلمَلْبوساتِ وَأَغْلى آلبَضائِعِ ، وَحَمَلْتُها إِلى آلبَصْرةِ . وَفي آلبَصْرةِ آلْتَقَيتُ رُبَّانَ سَفينةٍ ، وَتَبادَلْتُ وَإِيَّاهُ آلحَديثَ .

وَمِمّا قالَهُ لي : « سَتُقْلِعُ آلسَّفينةُ آلأُسْبوعَ آلقادِمَ ، وَعَلَيْها سِتَّةٌ مِنَ آلتُّجّارِ وَبَضائِعُهُمْ . وَنَحْنُ في طَريقِنا إلى بِلادِ آلشَّرْقِ آلأَقْصى وَجُزُرِهِ ، حَيْثُ يَبيعُ آلتُّجّارُ بِضاعَتَهُمْ ، وَيَبْتاعُونَ آلجَواهِرَ وَنَفائِسَ آلشَّرْقِ لِيَبيعُوها في بِلادِهِمْ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ مِنْ رِحْلَتِهِمْ . »

لَمّا انْتَهى آلرُّبّانُ مِنْ كَلامِهِ ، سَأَلْتُهُ : « هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَأْخُذَ عَلى سَفينَتِكَ تاجِرًا آخَرَ ؟ لَيْسَ لَدَيَّ إلّا بِضْعَةُ صَناديقَ ، وَسَأَدْفَعُ لَكَ نَصيبَكَ مِمّا سَأَنالُهُ مِنْ أَرْباحٍ . » فَوافَقَ آلرُّبّانُ عَلى ذٰلِكَ .

في آلأُسْبوعِ آلتّالي ، أَبْحَرَتِ آلسَّفينةُ في شَطِّ آلعَرَبِ ، ثُمَّ عَبَرَتِ آلخَليجَ آلعَرَبِيَّ إلى آلمُحيطِ آلهِنْديِّ . وَطالَ سَيْرُنا في آلبَحْرِ أَيّامًا بِلَياليها . وَكُنّا نَتَوَقَّفُ في بَعْضِ آلمَوانِئِ وَآلجُزُرِ فَنُقايِضُ عَلى بَضائِعِنا . وَذاتَ يَوْمٍ ، رَسَتِ آلسَّفينةُ عَلى شاطِئِ جَزيرةٍ غَنّاءَ . وَكانَ آلرُّبّانُ يَأْمُلُ أَنْ يَحْصُلَ عَلى آلماءِ آلعَذْبِ مِنْها ، وَلِهٰذا أَرْسى سَفينَتَهُ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنَ آليابِسَةِ . وَقَصَدَ آلكَثيرونَ مِنّا آلشّاطِئَ بَحْثًا عَنِ آلماءِ آلعَذْبِ ، وَرَغْبَةً في آلتَّجَوُّلِ في أَنْحاءِ آلجَزيرَةِ . وَقَدْ حَمَلَ آلبَحّارَةُ قُدورَ آلماءِ آلكَبيرَةَ لِمَلْئِها ، عَلى حِينَ أَخَذْتُ أَجُولُ في آلجَزيرَةِ وَأَتَمَتَّعُ بِمَناظِرِها . وَقَدْ حَلا لِبَعْضِ آلبَحّارَةِ وَآلتُّجّارِ أَنْ يَجْمَعوا آلحَطَبَ وَيُشْعِلوا نارًا .

الجَزيرَةُ تَتَحَرَّكُ

حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ شَيْئانِ في وَقْتٍ واحِدٍ ، أَوَّلُهُما : تَحَرُّكُ آلجَزيرَةِ مِنْ

تَحْتِنا ، وَثانيهُما : صُراخُ آلرُّبّانِ يَدْعونا لِلنَّجاةِ بِأَنْفُسِنا وَآلعَوْدَةِ إلى آلسَّفينَةِ . صاحَ : « إنَّ آلأَرْضَ آلَّتي تَقِفُونَ عَلَيْها لَيْسَتْ جَزيرَةً ، وَإنَّما هِيَ حُوتٌ عَظيمٌ يَنامُ فَوْقَ سَطْحِ آلماءِ مُنْذُ سَنَواتٍ ، فَنَمَتْ عَلَيْهِ آلنَّباتاتُ ، لٰكِنَّ نارَكُمْ أَيْقَظَتْهُ مِنْ نَوْمِهِ . آلهَرَبَ ! آلهَرَبَ ! قَبْلَ أَنْ يَغوصَ بِكُمُ آلحُوتُ في أَعْماقِ آلبَحْرِ . »

فَلَمّا سَمِعْنا ما قالَهُ آلرُّبّانُ ، أَسْرَعْنا طَلَبًا لِلنَّجاةِ ، وَلٰكِنّي كُنْتُ عَلى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ ، وَلَمْ أَسْتَطِعِ آللَّحاقَ بِالسَّفينَةِ قَبْلَ إقْلاعِها . وَما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ ، حَتّى أَخَذَتِ آلجَزيرَةُ تَغوصُ في آلأَعْماقِ . ثُمَّ هَبَّتْ رِياحٌ عاتِيَةٌ عَصَفَتْ

بِالسَّفِينةِ بَعيدًا ، وَوَجَدْتُ نَفْسي في صِراعٍ مَعَ ٱلأَمْواجِ ، أُصْعَدُ إلى سَطْحِ ٱلماءِ ، وَأُغوصُ ثانِيةً . وَٱخْتَفَتِ ٱلسَّفينةُ عَنْ ناظِرَيَّ ، وَٱنْقَطَعَ بِذٰلِكَ آخِرُ خَيْطٍ مِنَ ٱلأَمَلِ ؛ بَلْ تَوَقَّعْتُ ٱلمَوْتَ في ذٰلِكَ ٱلبَحْرِ ٱلمُتَلاطِمِ ٱلأَمْواجِ .

قِدْرُ ٱلماءِ

لٰكِنَّ ٱلعِنايةَ ٱلرَّبَّانِيَّةَ ٱلَّتي لا تَغْفُلُ وَلا تَنامُ ، ساقَتْ إلَيَّ قِدْرًا فارِغةً ، فَٱحْتَضَنْتُها بِذِراعَيَّ ، وَنَجَوْتُ مِنَ ٱلغَرَقِ . وَلَمْ يَكُنْ مِنَ ٱليَسيرِ عَلَيَّ أَنْ أَبْقى مُحْتَضِنًا ٱلقِدْرَ ، عَلى حِينِ تَلْعَبُ بِيَ ٱلأَمْواجُ كَيْفَ شاءَتْ ، تَقْذِفُ بي هُنا ، ثُمَّ تَعودُ فَتَقْذِفُ بي هُناكَ ، وَأَنا لا حَوْلَ لي وَلا قُوَّةَ. وَبَقيتُ عَلى هٰذِهِ ٱلحالِ أَدْري . وَكُلُّ ما أَعْرِفُهُ أَنِّي أَصْبَحْتُ عاجِزًا عَنِ ٱلحَرَكةِ لِمُدَّةِ يَوْمَيْنِ . كُنْتُ خائِرَ ٱلقُوَى مِنَ ٱلجُوعِ وَٱلعَطَشِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعِ ٱلنُّهوضَ عَلى قَدَمَيَّ . نَظَرْتُ إلى قَدَمَيَّ فَلاحَظْتُ آثارَ نَهْشِ ٱلسَّمَكِ في لَحْمي ظاهِرةً لِلْعِيانِ ، فَقُلْتُ

ثُمَّ تَعودُ فَتَقْذِفُ بي هُناكَ ، وَأَنا لا حَوْلَ لي وَلا قُوَّةَ. وَبَقيتُ عَلى هٰذِهِ ٱلحالِ

لِنَفْسي : « لا تَبْتَئِسْ يا سِنْدِبادُ ! سَتُشْفَى قَدَماكَ . إنَّ غَسْلَهُما بِالماءِ ٱلنَّظيفِ ٱلعَذْبِ ضَرُورِيٌّ ، لِذا يَجِبُ ٱلبَحْثُ عَنْهُ . »

أَخَذْتُ أَزْحَفُ عَلى ٱلأَرْضِ مُسْتَعينًا بِذِراعَيَّ حَتَّى بَلَغْتُ شَجَرةَ فاكِهةٍ عَلى ضِفَّةِ نُهَيرٍ . وَبَقيتُ تَحْتَها أَيَّامًا أَقْتاتُ ثِمارَها وَأَشْرَبُ مِنْ مِياهِ ٱلنُّهَيرِ ، إلى أَنْ تَحَسَّنَتْ حالُ قَدَمَيَّ ، وَٱسْتَعَدْتُ شَيْئًا مِنْ قُوايَ . وَأَحْسَسْتُ بِأَنَّهُ قَدْ آنَ ٱلأَوانُ لِمُغادَرَةِ ٱلمَكانِ ، فَتَزَوَّدْتُ بِبَعْضِ ٱلفاكِهةِ دُونَ ٱلماءِ لِعَدَمِ قُدْرَتي عَلى حَمْلِهِ ، عَلى أَمَلِ ٱلعُثورِ عَلى أَنْهارٍ أُخْرى في طَريقي . وَلٰكِنْ خابَتْ ظُنوني وَٱنْهارَتْ آمالي ، إذْ لَمْ أُصادِفْ في طَريقي ماءً لِلشُّرْبِ أَوْ أَشْجارَ فاكِهةٍ .

سِرْتُ عَلى شاطِئِ ٱلبَحْرِ دُونَ أَنْ تَلْمَحَ عَيْنايَ ما يَدُلُّ عَلى وُجودِ بَشَرٍ إطْلاقًا . وَبَعْدَ أَنْ قَضَيْتُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ أَمْشي عَلى غَيرِ هُدًى ، وَأَعيشُ عَلى بَقِيَّةٍ مِنَ ٱلأَمَلِ ، بَدَأَ ٱلخَوْفُ يَدِبُّ في أَوْصالي ، وَيَمْلِكُ عَلَيَّ مَشاعِري ، فَرُحْتُ أُخاطِبُ نَفْسي : « يا تُرَى ، هَلْ أَنا ٱلوَحيدُ في هٰذِهِ ٱلجَزيرةِ ؟ أَما مِنْ حَيَوانٍ أَوْ طَيرٍ أَوْ إنْسانٍ هُنا ؟ ما ٱلَّذي أَراهُ هُناكَ ؟ »

ٱلحِصانُ

أَخَذْتُ أُنْعِمُ ٱلنَّظَرَ فيما لاحَ لي مِنْ بَعيدٍ ، وَإذا بِهِ حِصانٌ . رُدَّتْ رُوحي إلَيَّ ، وَعاوَدَني ٱلأَمَلُ في ٱلحَياةِ ، فَأَسْرَعْتُ ٱلخُطى صَوْبَ ٱلحِصانِ . وَكانَ ، وَٱلحَقُّ يُقالُ ، في غايةِ ٱلجَمالِ وَٱلرَّشاقةِ . فَقُلْتُ في نَفْسي : « إنَّ حِصانًا كَهٰذا لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِمَلِكٍ أَوْ لِرَجُلٍ ثَرِيٍّ . »

وَما إنِ اقْتَرَبْتُ مِنْهُ حَتَّى خَرَجَ مِنْ كَهْفٍ لَيْسَ بِبَعيدٍ رَجُلٌ أَخَذَ يَجْري بِسُرْعةٍ ، مُشْهِرًا سَيْفَهُ ، ثُمَّ صَرَخَ فَيَّ قائِلًا : « كُلُّ مَنْ يَمَسُّ حِصانَ آلمَلِكِ المَوْتُ مَصيرُهُ . »

قُلْتُ لَهُ مُتَوَسِّلًا : « لا تَقْتُلْني أَيُّها آلرَّجُلُ ! ما كُنْتُ أَقْصِدُ إلَّا رُؤْيَةَ هٰذا آلحِصانِ آلجَميلِ ، فَهَلْ هُوَ لَكَ ؟ »

فَرَدَّ عَلَيَّ آلرَّجُلُ مُتَسائِلًا : « قُلْ لِيَ مَنْ أَنْتَ ؟ وَما آلَّذي جاءَ بِكَ إلى هٰذا آلمَكانِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لَقَدْ نَجَوْتُ مِنَ آلغَرَقِ بِوَساطَةِ قِدْرِ ماءٍ . » وَرَوَيتُ لَهُ حِكايَتي مِنْ أَوَّلِها إلى آخِرِها .

وَما إنْ سَمِعَ حِكايَتي آلمُؤْلِمَةَ ، حَتَّى أَخَذَني مِنْ يَدي ، وَسارَ بي إلى آلكَهْفِ ، وَقَدَّمَ لِيَ آلطَّعامَ وَآلماءَ . وَأَخَذَ يُسَرِّي عَنِّي هُمُومِيَ قائِلًا : « حقًّا إنَّ آلعِنايَةَ آلإلٰهِيَّةَ شَمِلَتْكَ ، فَكَتَبَتْ لَكَ آلحَياةَ . إنِّي وَزُمَلائي مِنْ خُدَّامِ آلمَلِكِ نَأْتي في كُلِّ عامٍ مَرَّةً إلى هٰذا آلمَكانِ مِنَ آلجَزيرةِ ، وَنَقْضي فيهِ أُسْبوعًا وَمَعَنا أَحْسَنُ جِيادِ آلمَلِكِ . فَهَواءُ آلجَزيرةِ عَليلٌ يُنْعِشُ آلجِيادَ وَيُكْسِبُها آلصِّحَّةَ وَآلعافِيَةَ . وَلٰكِنَّ آلجَزيرةَ تَفْتَقِرُ إلى آلطَّعامِ وَآلماءِ لِبُعْدِها عَنِ آلأَماكِنِ آلمَأْهولَةِ بِالسُّكّانِ ، وَلِتَعَذُّرِ آلوُصولِ إلَيْها دُوْنَ دَليلٍ . وَلِهٰذا سَنَصْطَحِبُكَ مَعَنا غَدًا في طَريقِ عَوْدَتِنا . »

المَلِكُ آلمِهْرجانُ

لَمْ يَمُرَّ مِنَ آلوَقْتِ إلّا قَليلُهُ ، حَتَّى حَضَرَ زُمَلاؤُهُ فَوْقَ جِيادِ آلمَلِكِ آلرَّشيقَةِ ، وَرافَقْتُهُمْ في عَوْدَتِهِمْ . وَفي آلطَّريقِ حَدَّثوني كَثيرًا عَنْ مَلِكِهِمْ ، وَمِمَّا قالوهُ : « إنَّ آلمَلِكَ آلمِهْرجانَ أَعْظَمُ مَلِكٍ في آلبِلادِ ، وَآلشَّعْبُ يُوليهِ صادِقَ وَلائِهِ وَعَظيمَ حُبِّهِ ، لِما يَعْرِفُ عَنْهُ مِنْ كَرَمِ آلخُلُقِ ، وَطيبِ آلسَّريرةِ ، وَإعْطاءِ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ ؛ وَلِأَنَّهُ لا يَخافُ في آلحَقِّ لَوْمَةَ لائِمٍ . وَيَقْصِدُ مَدينَتَنا آلعَظيمَةَ تُجَّارٌ مِنْ مَخْتَلِفِ بِقاعِ آلأَرْضِ ، فَيَلْقَوْنَ كُلَّ رِعايَةٍ وَحُسْنَ مُعامَلَةٍ . »

وَبِمُجَرَّدِ وُصولِنا إلى آلمَدينَةِ ، أَسْرَعُوا إلى آلمَلِكِ ، وَأَنْبَأُوهُ بِشَأْني . فَما كانَ مِنْهُ إلَّا أَنِ اسْتَدْعاني ، وَاسْتَمَعَ إلى تَفاصيلِ قِصَّتي بِكُلِّ اهْتِمامٍ . ثُمَّ عَقَّبَ عَلى كَلامي بِقَوْلِهِ : « لَقَدْ كانَ آلحَظُّ حَليفَكَ . »

وَأَمَرَ خَدَمَهُ بِتَوْفيرِ ما أَحْتاجُ إلَيهِ بَعْدَ أَنْ شَمِلَني بِرِعايَتِهِ . وَكانَ بَيْنَ آلحينِ وَآلآخَرِ يَسْتَدْعيني إلى دِيوانِهِ ، وَكُنْتُ أُجيدُ آلحَديثَ بِعَدَدٍ مِنَ آللُّغاتِ ، فَاسْتَعانَ بِيَ آلمَلِكُ في آلاهْتِمامِ بِشُؤونِ آلتُّجَّارِ وَآلبَحّارَةِ آلَّذينَ كانُوا يَزُورونَ مَمْلَكَتَهُ ، ثُمَّ إخْطارِهِ بِما يَحْمِلُونَ مِنْ بَضائِعَ أَوْ بِما يَشْتَرُونَهُ مِنْ مَمْلَكَتِهِ . وَقَدْ دَأَبْتُ عَلى سُؤالِ رَبابِنَةِ آلسُّفُنِ عَنْ رِحْلاتِهِمْ ، وَعَمَّا إذا كانُوا يَعْرِفُونَ بَغْدادَ .

رُبَّانُ ٱلسَّفينةِ

ذاتَ يَوْمٍ ، رَسَتْ في ٱلميناءِ سَفينةٌ كَبيرةٌ ، وَبَدَأَ ٱلتُّجَّارُ ٱلقادِمونَ عَلَيْها في إنْزالِ بَضائِعِهِمْ ، وَأَخَذُوا يَبيعُونَ وَيَشْتَرونَ وَيُقايِضونَ . فَاقْتَرَبْتُ مِنَ ٱلرُّبَّانِ وَسَأَلْتُهُ : « أَما مِنْ بَضائِعَ أُخْرى في ٱلسَّفينةِ ؟ »

كانَ جَوابُهُ : « في ٱلسَّفينةِ بِضْعَةُ صَناديقَ لِتاجِرٍ شابٍّ بَدَأَ رِحْلَتَهُ مَعَنا ، وَلٰكِنَّهُ ماتَ غَرَقًا . وَسَأَقومُ بِبَيْعِ بِضاعَتِهِ وَتَسْليمِ ثَمَنِها إلى أَهْلِهِ في بَغْدادَ ٱلعَظيمةِ .

تَفَرَّسْتُ في وَجْهِهِ ، فَعَرَفْتُهُ . وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ لَكَ أَنْ تَذْكُرَ لِيَ اسْمَهُ ؟ »

أَجابَني : « إنَّ اسْمَهُ ٱلسِّنْدِبادُ . »

وَما إنْ سَمِعْتُ اسْمِيَ حَتَّى كادَ أَنْ يُغْشى عَليَّ ، فَصَرَخْتُ بِأَعْلى صَوْتي : « أَيُّها ٱلرُّبَّانُ ! أَنا ٱلسِّنْدِبادُ ، وَهٰذِهِ بِضاعَتي ، وَإِنِّي لَأَشْكُرُكَ عَلى احْتِفاظِكَ بِها ! »

وَلَمْ يَسَعِ ٱلرُّبَّانُ إلَّا أَنْ يَسْتَنْكِرَ قَوْلِيَ وَيَصيحَ : « كَيْفَ لي أَنْ أُصَدِّقَكَ ؟ صَحيحٌ أَنَّ وَجْهَكَ يَنِمُّ عَنِ ٱلطِّيبةِ وَٱلصَّلاحِ ، وَلٰكِنَّكَ تَدَّعي أَنَّكَ ٱلسِّنْدِبادُ لِتَسْتَوليَ عَلى ٱلبَضائِعِ دُونَ وَجْهِ حَقٍّ . لَقَدْ رَأَيْتُ ٱلسِّنْدِبادَ بِعَيْنَيَّ وَٱلماءُ يَبْتَلِعُهُ ، كَما رَآهُ ٱلبَحّارةُ وَٱلتُّجّارُ عَلى ظَهْرِ ٱلسَّفينةِ ، عِنْدَما كانَ ٱلمَوْتُ يَطْويهِ بَيْنَ أَمْواجِ ٱلبَحْرِ . كَفاكَ ادِّعاءً ، فَأَنْتَ لَسْتَ ٱلسِّنْدِبادَ . »

وَلَمَّا زادَتْ حِدَّةُ ٱلمَوْقِفِ بَيْنَنا ، قُلْتُ لَهُ : « أَيُّها ٱلرُّبَّانُ ! أَرْجو أَنْ

تَسْتَمِعَ إلَيَّ ، وَتُنْصِتَ إلى حِكايَتي ، وَأَتْرُكُ لَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْرَ تَصْديقي أَو تَكْذيبي . »

وَأَخَذْتُ أَحْكي لَهُ حِكايَتي مُنْذُ أَنْ قابَلْتُهُ في ٱلبَصْرَةِ ، وَذَكَّرْتُهُ بِأَشْياءَ خاصَّةٍ جَرَتْ بَيْنَنا تَقُومُ دَليلًا عَلى صِدْقِ قَوْلي . حِيْنَذاكَ اقْتَنَعَ ٱلرُّبَّانُ بِما قُلْتُهُ ، وَأَظْهَرَ ٱلتُّجّارُ فَرْحَتَهُمْ بِنَجاتي وَهَنَّأُوني بِٱلسَّلامةِ .

هَديَّةُ ٱلمَلِكِ

قامَ ٱلرُّبَّانُ بِتَسْليمي بَضائِعي فَاخْتَرْتُ مِنْ بَيْنِها أَغْلاها لِتَكونَ هَديَّةً لِلْمَلِكِ ، وَحَمَلَها ٱلبَحّارةُ وَوَضَعُوها بَيْنَ يَدَيْهِ . وَما إنْ رَآها حَتَّى قالَ لي : « ما هٰذا ٱلَّذي أَراهُ ؟ لَقَدْ جِئْتَنا خالِيَ ٱلوِفاضِ ، وَلٰكِنِّي أَراكَ ٱلآنَ تُقَدِّمُ لي هَديَّةً ثَمينةً ، فَكَيْفَ حَدَثَ هٰذا ؟ »

أَعَدْتُ عَلى مَسامِعِ ٱلمَلِكِ قِصَّةَ ٱلسَّفينةِ وَما جَرى لي . وَلَمْ يَسَعِ ٱلمَلِكُ إلَّا أَنْ يُقَدِّمَ لي هَديَّةً أَثْمَنَ مِنْ هَديَّتي لَهُ .

العَوْدَةُ إلى بَغْدادَ

عِنْدَما شَرَعَتِ ٱلسَّفينةُ تَأْخُذُ أُهْبَتَها لِلإبْحارِ ، ذَهَبْتُ إلى ٱلمَلِكِ وَقُلْتُ لَهُ : « يُحْزِنُني يامَوْلايَ أَنْ أُغادِرَ بَلَدَكَ ٱلجَميلَ ، وَأُحْرَمَ مِنْ رُؤْيَةِ مَلِكٍ عَظيمٍ ، عَطَفَ عَلَيَّ ، وَشَمِلَني بِرِعايَتِهِ ؛ فَأَنا يامَوْلايَ أَحِنُّ إلى مَدينَتي وَمَسْقَطِ رَأْسي ، بَغْدادَ ٱلعَظيمةِ . »

وَافَقَ ٱلمَلِكُ عَلى رَحيلي قائِلًا : « لَقَدْ صَدَقْتَ فيما قُلْتَ ، وَٱلواجِبُ

يَدْعُوكَ إلى ٱلعَوْدةِ إلى بَلَدِكَ . لَقَدْ كُنْتَ بَيْنَنا نِعْمَ ٱلصَّديقُ ٱلَّذي نَعْتَزُّ بِصَداقَتِهِ ، فَقَدْ قَدَّمْتَ إلى بَلَدي أَجَلَّ ٱلخِدْماتِ وَأَصْدَقَها . رافَقَتْكَ ٱلسَّلامَةُ ، وَلَكَ شُكْري وَتَقْديري . »

ثُمَّ أَمَرَ خَدَمَهُ أَنْ يَحْمِلوا لِيَ ٱلهَدايا ٱلثَّمينةَ مِنْ ذَهَبٍ وَجَواهِرَ وَمَلابِسَ فاخِرةٍ وَغَيْرِها مِمَّا لا يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ . وَبَعْدَ رِحْلةٍ طَويلةٍ رَسَتْ بِنا ٱلسَّفينةُ في ميناءِ ٱلبَصْرةِ ، وَمِنْها سافَرْتُ بَرًّا إلى بَغْدادَ . وَقَدْ فَرِحَ أَصْدِقائي بِعَوْدَتي ، وَٱشْتَرَيْتُ لِنَفْسي بَيْتًا فَخْمًا ، عِشْتُ فِيهِ عِدَّةَ سَنَواتٍ في جَوٍّ مِنَ ٱلسَّعادةِ وَٱلرَّفاهِيةِ . وَغَدًا إنْ شاءَ ٱللهُ سَأُحَدِّثُكُمْ عَنِ ٱلرِّحْلةِ ٱلثَّانيةِ .

ٱلرِّحْلـةُ ٱلثَّانِيـةُ

عِنْدَما عُدْتُ مِنْ رِحْلَتي ٱلأُولى ، قَرَّرْتُ أَنْ أَقْضيَ بَقِيَّةَ عُمْري في بَغْدادَ . فَقَدْ رَزَقَنِي ٱللهُ ٱلخَيْرَ ٱلوَفيرَ ، وَكُلَّ أَسْبابِ ٱلسَّعادةِ : فَٱلبَيْتُ فَخْمٌ ، وَٱلأَصْدِقاءُ كَثيرونَ ، وَمُتَطَلَّباتُ حَياةِ ٱلرَّفاهِيَةِ مُتَوَفِّرةٌ . وَلٰكِنْ وَسْوَسَتْ لِي نَفْسي أَنْ أُغامِرَ ثانِيةً لِأَرى ما لَمْ أَرَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ بِلادٍ وَجُزُرٍ وَغَيْرِها . وَعاوَدَني ٱلحَنينُ إلى ٱلتِّجارةِ مِنْ بَيْعٍ وَشِراءٍ وَمُقايَضةٍ .

وَلَمَّا عَزَمْتُ عَلى ٱلخُروجِ في تِجارةٍ ، مَلَأْتُ ٱلصَّناديقَ بِما خَفَّ حَمْلُهُ وَغَلا ثَمَنُهُ ، مِمَّا تَزْخَرُ بِهِ أَسْواقُ بَغْدادَ . وَحَمَلْتُها إلى ٱلبَصْرةِ ؛ حَيْثُ رَكِبْتُ سَفينةً تَحْمِلُ عَدَدًا مِنَ ٱلتُّجّارِ .

أَقْلَعَتْ بِنا ٱلسَّفينةُ في رِحْلةٍ جَميلةٍ ، وَكُنَّا نَتَنَقَّلُ بِها مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزيرةٍ إلى جَزيرةٍ ، بِحَيْثُ كانَتْ وُجْهةُ سَيْرِنا ٱلجَنوبَ وَٱلشَّرْقَ . وَبَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، رَسَتِ ٱلسَّفينةُ عَلى شاطِئِ جَزيرةٍ غَنِيَّةٍ بِأَشْجارِها ٱلدّائِمةِ ٱلخُضْرةِ ، وَبِأَثْمارِها ٱليانِعةِ ، وَبِأَزْهارِها ٱلفَوّاحةِ ، وَبِأَنْهارِها ذاتِ ٱلمِياهِ ٱلعَذْبةِ . وَلٰكِنَّنا لَمْ نَرَ بِها بَشَرًا .

نَزَلَ بَعْضُ ٱلبَحّارةِ لِيَمْلَأُوا ٱلأَوانيَ بِٱلمِياهِ ٱلعَذْبةِ ، عَلى حِينَ رافَقْتُ بَعْضَ ٱلتُّجّارِ في ٱلتَّجَوُّلِ في أَنْحاءِ ٱلجَزيرةِ ، وَشاهَدْنا ٱلأَزْهارَ ٱلرّائِعةَ ٱلجَمالِ . وَقَدْ

وَقَعَتْ عَيْنايَ عَلَى زَهْرةٍ كَبيرةٍ وَجَميلةٍ ، فَاقْتَرَبْتُ مِنْها وَشَمَمْتُها ، فَرُحْتُ في سُباتٍ عَميقٍ .

وَلَمَّا أَفَقْتُ مِنْ نَوْمي ، وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدًا ، وَلا أَثَرَ لِلْبَحَّارةِ أَوِ ٱلتُّجَّارِ عَلى ٱلجَزيرةِ . وَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ أَخَذْتُ أَصْرُخُ : « يالَلْحَماقةِ ٱلَّتي ارْتَكَبْتُها ! لِمَ ابْتَعَدْتُ عَنْ بَلَديَ ٱلحَبيبِ ؟ هٰأَنَذا أَصْبَحْت وَحيدًا ، وَفي مَكانٍ مُقْفِرٍ غَيْرِ عامِرٍ بِٱلسُّكَّانِ . وَمِنَ ٱلغَباءِ أَنْ أَصْرُخَ في مِثْلِ هٰذا ٱلمَكانِ . »

الـــرُّخُّ

وَبِكُلِّ مَشَقَّةٍ تَسَلَّقْتُ إِلى أَعْلى شَجَرةٍ ، وَأَخَذْتُ أَنْظُرُ حَوْلي . فَرَأَيْتُ سَفينَتَنا مُبْحِرةً بَعيدًا ، وَلَمْ أَرَ في ٱلجَزيرةِ إِلَّا ٱلأَشْجارَ ، وَلا شَيْءَ غَيْرَ ٱلأَشْجارِ . وَلَمَّا أَطَلْتُ ٱلنَّظَرَ ، رَأَيْتُ عَنْ بُعْدٍ شَيْئًا كَبيرًا ، لَوْنُهُ أَبْيَضُ ، وَيُشْبِهُ قُبَّةً هائِلةً فَوْقَ بَيْتٍ .

سِرْتُ نَحْوَ هٰذا ٱلشَّيْءِ عِدَّةَ ساعاتٍ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَيْهِ عِنْدَ ٱلغُروبِ . وَوَجَدْتُهُ يُشْبِهُ بَيْضةً ضَخْمةً جِدًّا . وَفي بِدايةِ ٱلأَمْرِ ، ظَنَنْتُها قُبَّةً ، وَلٰكِنْ ، ساءَلْتُ نَفْسي : « إِنْ كانَتْ قُبَّةً ، فَأَيْنَ ٱلبَيْتُ ٱلَّذي أُقيمَتْ عَلَيْهِ ، وَأَيْنَ ٱلبابُ ؟ »

بَيْنَما كُنْتُ أُرَدِّدُ هٰذِهِ ٱلأَسْئِلةَ في نَفْسي ، إِذا بِشَيْءٍ يَحْجُبُ ٱلشَّمْسَ ، وَيُحَوِّلُ ٱلنَّهارَ لَيْلًا . وَرَفَعْتُ رَأْسي فَرَأَيْتُ طائِرًا ضَخْمًا جِدًّا . فَتَذَكَّرْتُ ما كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ ٱلبَحَّارةِ عَنْ طائِرٍ هائِلِ ٱلحَجْمِ يُقالُ لَهُ ٱلرُّخُّ . وَلَنا أَنْ نَتَخَيَّلَ

ضَخامَتَهُ ، إِذا عَلِمْنا أَنَّهُ يَزُقُّ صَغيرَهُ بِفيلٍ مَرَّةً واحِدةً . وَهُنا تَأَكَّدَ لي أَنَّ ٱلطّائِرَ ٱلَّذي أَراهُ هُوَ ٱلرُّخُّ ، وَقَدْ جاءَ لِيَرْقُدَ عَلى ٱلبَيْضةِ . وَفِعْلًا حَضَنَ ٱلبَيْضةَ بِجَناحَيْهِ وَرَقَدَ عَلَيْها . وَهُنا جالَتْ في ذِهْني عِدَّةُ أَسْئِلةٍ مِنْ بَيْنِها : « مِنْ أَيْنَ جاءَ ٱلرُّخُّ ، وَإِلى أَيْنَ سَيَطيرُ ؟ فَقَدْ يَطيرُ إِلى مَكانٍ مَأْهولٍ بِٱلسُّكَّانِ ؛ فَمَكانٌ مَأْهولٌ أَفْضَلُ بِكَثيرٍ مِنْ مَكانٍ مُقْفِرٍ .

أَسْرَعْتُ بِانْتِزاعِ عِمامَتي مِنْ فَوْقِ رَأْسي ، وَلَفَفْتُها حَوْلَ جِسْمي وَساقِ ٱلرُّخِّ ٱلشَّبيهةِ بِجِذْعِ ٱلشَّجَرةِ ، وَأَحْكَمْتُ ٱلرِّباطَ . وَعِنْدَما طَلَعَ ٱلصَّباحُ ، طارَ بي في ٱلجَوِّ دونَ أَنْ يَشْعُرَ بِوُجودي . وَطارَ مَسافةً بَعيدةً فَوْقَ بِحارٍ

وَجُزُرٍ وَجِبالٍ وَوُدْيانٍ . وَأَخيرًا هَبَطَ في وادٍ سَحيقٍ ، تَحُفُّهُ آلهِضابُ وَكَأَنَّها أَسْوارٌ شاهِقةٌ .

وادي آلمـاسِ

انْقَضَّ آلرُّخُّ في آلوادِي عَلى أُفْعًى ضَخْمةٍ ، فَخِفْتُ عَلى نَفْسي ، وَحَلَلْتُ عِمامَتي مِنْ ساقِهِ وَوَلَّيْتُ هارِبًا ، إلى أَنْ وَجَدْتُ صَخْرةً كَبيرةً اخْتَبَأْتُ وَراءَها . أَمَّا آلرُّخُّ فَقَدْ رَفَعَ آلأُفْعَى بَيْنَ مَخالِبِهِ ، وَطارَ في آلجَوِّ .

نَظَرْتُ حَوْلي فَرَأَيْتُ آلأَفاعيَ آلمُخيفةَ تَسْعى في آلوادِي ، حَتَّى إنَّ بَعْضَها كانَ يُضارِعُ آلسَّفينةَ في طُولِها . وَلٰكِنَّها في وَضَحِ آلنَّهارِ تَلْجَأُ إلى جُحُورِها ، لِأَنَّها تَنامُ نَهارًا ، وَتَسْعى في طَلَبِ طَعامِها لَيْلًا . وَلِهٰذا لا خَوْفَ عَلَيَّ مِنْها في آلنَّهارِ ، وَأَسْتَطيعُ أَنْ أَبْحَثَ عَنْ مَخْرَجٍ لي مِنَ آلوادي . وَمَشَيْتُ مَسافةً طَويلةً ، وَإذا بي أَرى أَنَّ قاعَ آلوادي مُغَطًّى بِآلماسِ آلنَّفيسِ ، وَبِأَحْجامٍ كَبيرةٍ وَجَميلةٍ ، وَلٰكِنِّي ما كُنْتُ راغِبًا في آلماسِ ، بَلْ في آلخُروجِ مِنْ ذٰلِكَ آلوادي .

وَعِنْدَما حَلَّ آللَّيْلُ ، بَدَأَتِ آلأَفاعي تَخْرُجُ مِنْ جُحورِها ، وَلِحُسْنِ حَظِّي وَجَدْتُ نَفْسيَ عَلى مَقْرَبةٍ مِنْ كَهْفٍ صَغيرٍ عَلى مَدْخَلِهِ صَخْرةٌ كَبيرةٌ ، فَجَرَيْتُ إلَيْهِ وَأَزَحْتُ آلصَّخْرةَ آلكَبيرةَ عَنْ مَدْخَلِهِ . وَكانَتْ هٰذِهِ آلصَّخْرةُ نِعْمةً لي ، إذْ حَمَتْني طِيلةَ آللَّيْلِ مِنَ آلأَفاعي آلَّتي كُنْتُ أَسْمَعُ فَحيحَها حَوْلَ آلكَهْفِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعِ آلوُصولَ إليَّ .

تُجَّـارُ آلمـاسِ

في آلصَّباحِ ، خَرَجْتُ مِنَ آلكَهْفِ ، وَفِكْري مُنْصَرِفٌ إلى كَيْفيَّةِ آلخُروجِ مِنَ آلوادي . وَإذا بي أَسْمَعُ صَوْتَ ارْتِطامِ شَيْءٍ بِالأَرْضِ قَريبًا مِنِّي . وَآلْتَفَتُّ إلى جِهةِ آلصَّوْتِ ، فَشاهَدْتُ كُتْلةً مِنَ آللَّحْمِ سَقَطَتْ عَلى قِطَعِ آلماسِ ، وَآلدَّمُ لا يَزالُ يَسيلُ مِنْها . فَعَجِبْتُ لِما أَرى ، وَعِنْدَها عادَتْ بيَ آلذّاكِرةُ إلى ما سَمِعْتُهُ عَنْ وادي آلماسِ ، وَكَيْفَ يَتَحايَلُ آلتُّجّارُ عَلى جَمْعِهِ بِإلْقاءِ كُتَلِ آللَّحْمِ فَوْقَ آلماسِ في آلوادي . وَمِنْ شَأْنِ حَرارةِ آلشَّمْسِ أَنْ تَجْعَلَ كُتَلَ آللَّحْمِ لَزِجةً فَتَلْتَصِقُ بِها قِطَعُ آلماسِ . وَتَجيءُ آلطُّيورُ آلضَّخْمةُ فَتَحْمِلُها بَيْنَ مَخالِبِها ، وَتَطيرُ بِها لِتُطْعِمَ صِغارَها في آلهِضابِ آلقَريبةِ . وَما إنْ تَهْبِطَ آلطُّيورُ ، حَتَّى يُفاجِئَها آلتُّجّارُ بِآلصَّيْحاتِ آلقَويَّةِ ، فَتَنْفِرُ وَتَلوذُ بِالطَّيَرانِ ، وَيَذْهَبُ كُلُّ تاجِرٍ إلى كُتْلةِ آللَّحْمِ آلَّتي أَلْقاها ، وَيَجْمَعُ ما لَصِقَ بِها مِنَ آلماسِ .

قُلْتُ في نَفْسي : « لَقَدْ جاءَ بي إلى هٰذا آلمَكانِ طائِرٌ ، وَمِنَ آلضَّروريِّ أَنْ يَأْخُذَني مِنْ هٰذا آلمَكانِ طائِرٌ آخَرُ . » وَبِناءً عَلى هٰذا آلاِفْتِراضِ ، مَلأْتُ كِيسَ آلطَّعامِ آلَّذي كانَ مَعي بِأَكْبَرِ قِطَعِ آلماسِ وَأَنْفَسِها ، ثُمَّ فَكَكْتُ عِمامَتي وَلَفَفْتُها حَوْلَ جِسْمي وَأَكْبَرِ كُتْلةٍ مِنَ آللَّحْمِ ، وَأَحْكَمْتُ شَدَّها ، وَاسْتَلْقَيْتُ عَلى آلأَرْضِ بِحَيْثُ تَكونُ كُتْلةُ آللَّحْمِ فَوْقي .

آلإِنْقاذُ

بَعْدَ فَتْرةٍ هَبَطَ طائِرٌ ضَخْمٌ جِدًّا وَرَفَعَني وَكُتْلةَ آللَّحْمِ ، وَطارَ بي مِنَ

آلوادي . وَكانَ صِغارُ آلطَّائِرِ بِانْتِظارِ أَبيهِمْ عِنْدَ قِمَّةِ آلهَضْبَةِ . وَما إِنْ رَآهُ آلتُّجَّارُ ، حَتَّى تَعالَتْ صَيْحاتُهُمْ ، فَأَلْقَى آلطَّائِرُ كُتْلَةَ آللَّحْمِ وَطارَ . وَقَدْ أُصيبُوا بِآلذُّعْرِ عِنْدَما رَأَوْني أَحُلُّ آلرِّباطَ وَأَنْهَضُ عَلى قَدَمَيَّ وَآلدَّمُ يُلَطِّخُ مَلابِسي ، وَدَلائِلُ آلمَرَضِ عَلى جِسْمي بَعْدَ رِحْلَتَيْنِ جَوِّيَّتَيْنِ قُمْتُ بِهِما مَرْبوطًا في كُلِّ مَرَّةٍ إِلى ساقِ طائِرٍ . وَلٰكِنِّي هَدَّأْتُ مِنْ رَوْعِهِمْ . وَقُلْتُ لَهُمْ :

« أَنا رَجُلٌ مِثْلُكُمْ ، وَقَدْ حَمَلَني آلطَّائِرُ آلَّذي حَمَلَ كُتْلَةَ آللَّحْمِ مِنْ وادي آلماسِ . وَلَمْ يَلْصَقْ بِكُتْلَةِ آللَّحْمِ هٰذِهِ شَيْءٌ مِنَ آلماسِ ، وَلٰكِنِّي أَحْضَرْتُ مَعي قِطَعًا مِنْهُ ، كُلُّ واحِدةٍ مِنْها أَفْضَلُ بِكَثيرٍ مِنْ جَميعِ آلماسِ آلَّذي كانَ سَيَلْصَقُ بِكُتْلَةِ آللَّحْمِ . وَإِنِّي بِكُلِّ سُرورٍ سَأُعْطي بَعْضًا مِنْها لِصاحِبِ كُتْلَةِ آللَّحْمِ هٰذِهِ . »

اقْتَرَبَ آلتُّجَّارُ مِنِّي ، وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ ، وَتَحَدَّثُوا مَعي بِما خَفَّفَ عَنِّي ما لاقَيْتُهُ ، فَقَدْ قالُوا لي : « إِنَّكَ إِنْسانٌ مَحْظوظٌ ، إِذْ لَمْ يُقَدَّرْ لِإِنْسانٍ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ هٰذا آلوادي . »

وَساعَدَني آلتُّجَّارُ عَلى بَيْعِ بَعْضِ قِطَعِ آلماسِ ، وَآلبَحْثِ عَنْ سَفينةٍ تَقْصِدُ بَغْدادَ .

آلعَـوْدةُ

عُدْتُ إِلى بَغْدادَ رَجُلًا غَنِيًّا جِدًّا بِما أَحْمِلُهُ مَعي مِنْ أَكْبَرِ قِطَعِ آلماسِ في آلعالَمِ وَمِنَ آلبَضائِعِ آلنَّفيسةِ . وَعِنْدما وَطِئَتْ قَدَماي أَرْضَ آلوَطَنِ ، قُلْتُ

لِنَفْسي : « سَأَقْضي بَقِيَّةَ عُمْري في بَيْتِيَ آلجَميلِ ، أُنْفِقُ مِنْ ثَرْوَتي آلطَّائِلةِ ، وَأَسْتَمْتِعُ بِصُحْبةِ أَصْدِقائي . أَمَّا رُكوبُ آلبَحْرِ فلا عَوْدةَ إِلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ تَجَشَّمْتُ آلمَشاقَّ ، وَتَعَرَّضْتُ لِلْأَخْطارِ في رِحْلَتَيَّ آللَّتَيْنِ قُمْتُ بِهِما . »

وَلٰكِنَّني لَمْ أَفِ بِما وَعَدْتُ ، بَلْ رَكِبْتُ آلبَحْرَ مَرَّةً ثالِثةً . وَغَدًا إِنْ شاءَ آللهُ ، سَأُحَدِّثُكُمْ ، أَيُّها آلأَصْدِقاءُ ، عَنْ رِحْلَتي آلثَّالِثةِ .

الرِّحْلةُ الثَّالِثةُ

لَمْ يَمْضِ زَمَنٌ طَويلٌ حَتَّى تاقَتْ نَفْسي لِزيارةِ بُلْدانٍ لَمْ أَزُرْها مِنْ قَبْلُ ، أَبيعُ فيها وَأَشْتَري . وَكانَ أَنْ أَقْلَعْتُ مِنَ ٱلبَصْرةِ مَعَ آخَرينَ مِنَ ٱلتُّجَّارِ عَلى سَفينةٍ عَظيمةٍ ، راحَتْ تَتَنَقَّلُ بِنا مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزيرةٍ إلى جَزيرةٍ . وَكُنَّا نَبيعُ وَنَشْتَري وَنَكْسِبُ ٱلكَثيرَ ؛ فَكَثُرَتْ أَمْوالُنا ، وَزادَتْ ثَرواتُنا ، عِلاوةً عَلى ٱلسُّرورِ الَّذي نَعِمْنا بِهِ أَثْناءَ ٱلرِّحْلةِ .

وَوَسَطَ هٰذا ٱلجَوِّ مِنَ ٱلسُّرورِ الَّذي كُنَّا نَعيشُهُ ، هَبَّتْ عَلَيْنا عاصِفةٌ هَوْجاءُ جَعَلَتْ مِنَ ٱلسَّفينةِ أُلْعوبةً تَتَلَهَّى بِها ، تَقْذِفُها ذاتَ ٱليَمينِ وَذاتَ الشِّمالِ . وَدامَتِ ٱلعاصِفةُ أَرْبَعةَ أَيَّامٍ بِلَيالِيها ، كُنَّا خِلالَها تَحْتَ رَحْمَتِها ، إلى أَنْ وَجَدْنا أَنْفُسَنا عِنْدَ جَزيرةٍ .

وَجاءَنا ٱلرُّبَّانُ ، وَعَلاماتُ ٱلخَوْفِ وَٱلقَلَقِ مُرْتَسِمةٌ عَلى وَجْهِهِ ، وَقالَ : « لَنْ نَسْتَطيعَ مُواصَلةَ ٱلإِبْحارِ في مِثْلِ هٰذا ٱلجَوِّ ٱلعاصِفِ ، ولا نَسْتَطيعُ ٱلنُّزولَ فَوْقَ هٰذِهِ ٱلجَزيرةِ ، فَأَنا أَعْرِفُ ٱلكَثيرَ عَنْها؛ إِنَّهُ تَعيشُ فَوْقَها جَماعاتٌ مِنَ ٱلقُرودِ ، إذا رَأَتْ سَفينةً صَعِدَتْ إلى ظَهْرِها بِالآلافِ . وَلَوْ حاوَلَ أَحَدٌ مَنْعَها مِنَ ٱلصُّعودِ ، هَجَمَتْ عَلَيْهِ جُموعُها وَفَتَكَتْ بِهِ . وَعَلَيْهِ أَرْجُو أَلَّا يُحاوِلَ أَحَدُكُمُ ٱلتَّعَرُّضَ لَها . »

ٱلقُـرُودُ

ما كادَ ٱلرُّبَّانُ يُتِمُّ كَلامَهُ ، حَتَّى أَخَذَتِ ٱلقُرودُ تَتَوافَدُ بِالآلافِ . وَصَعِدَتْ إلى سَطْحِ ٱلسَّفينةِ ، دونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَها أَحَدٌ ، ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِالبَحَّارةِ وَٱلتُّجَّارِ وَأَنْزَلَتْهُمْ إلى ٱلجَزيرةِ ، وَقامَتْ بِتَسْييرِ ٱلسَّفينةِ إلى جِهةٍ أُخْرى بَعيدًا عَنِ ٱلجَزيرةِ .

بَعْدَ اسْتِيلاءِ ٱلقُرودِ عَلى ٱلسَّفينةِ وَما فيها ، أَخَذْنا نُنْعِمُ ٱلنَّظَرَ فيما نَحْنُ فيهِ ؛ فَتَوارَدَتْ عَلى خَواطِرِنا ٱلأَفْكارُ وَٱلِافْتِراضاتُ : « مِنَ ٱلمُسَلَّمِ بِهِ أَنَّ في ٱلجَزيرةِ قُرودًا أُخْرى لا حَصْرَ لَها . ماذا عَسانا أَنْ نَفْعَلَ ؟ ما هُوَ ٱلمَكانُ الَّذي نَسْتَطيعُ الذَّهابَ إلَيْهِ ؟ »

وَشاهَدَ أَحَدُ ٱلبَحَّارةِ مِنْ أَعْلى شَجَرةٍ كانَ يَقِفُ عَلَيْها بَيْتًا حَجَرِيًّا ضَخْمًا ، فَقالَ مُتَسائِلًا : « أَمِنَ ٱلحِكْمةِ أَنْ نَقْصِدَ ذٰلِكَ ٱلبَيْتَ وَنَخْتَبِئَ فيهِ لِاتِّقاءِ شَرِّ هٰؤُلاءِ ٱلقُرودِ ؟ »

في ذٰلِكَ ٱلبَيْتِ ٱلحَجَرِيِّ ، دَخَلْنا قاعةً فَسيحةً ، وَكُلُّنا يَتَطَلَّعُ بِحِرْصٍ إلى ما سَنُفاجَأُ بِهِ . وَإذا بِنا نَسْمَعُ وَقْعَ أَقْدامِ مارِدٍ . وَما إنْ دَخَلَ ٱلقاعةَ ، حَتَّى أَغْلَقَ ٱلبابَ ٱلضَّخْمَ خَلْفَهُ ؛ فَسَدَّ أَمامَنا طَريقَ ٱلهَرَبِ .

طَعامُ ٱلمارِدِ

كانَ ٱلمارِدُ ضَخْمَ ٱلجُثَّةِ ، وَكَأَنَّهُ شَجَرةٌ باسِقةٌ بِعَيْنَيْنِ وَكَأَنَّهُما شُعْلَتانِ مِنْ

نارٍ مُتَأَجِّجةٍ ، وَأَسْنانٍ كَأَنَّها صُخورٌ حادَّةٌ بَيْضاءُ ، وَفَمٍ كَأَنَّهُ كَهْفٌ . وَبَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ بِهِ ٱلْمُقامُ ، أَخْرَجَ بَعْضَ ٱلْحَطَبِ مِنْ صُنْدوقٍ في ٱلقاعةِ ، وَأَشْعَلَ نيرانًا كَبيرةً ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَفَرَّسُ في وُجوهِنا . وَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَهُ بِيَدِهِ . وَأَخَذَ يُقَلِّبُني ؛ فَوَجَدَني ضَعيفًا هَزيلًا فَتَرَكَني . وَلِحُسْنِ ٱلْحَظِّ ، أَنَّ مَلابِسي ٱلفاخِرةَ كانَتْ تَكْسو جِسْمًا لَيْسَ بِأَسْمَنَ مِنْ أُصْبُعِهِ . ثُمَّ أَخَذَ يَرْفَعُ ٱلرِّجالَ ، واحِدًا تِلْوَ ٱلآخَرِ ، حَتَّى وَجَدَ ٱلأَسْمَنَ ؛ فَأَكَلَهُ . وَبَعْدَ أَنِ اسْتَراحَ قَليلًا ، غَرِقَ في نَوْمٍ عَميقٍ .

وَفي صَباحِ ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالي ، غادَرَ ٱلمارِدُ ٱلْبَيْتَ ، بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَ ٱلبابَ ٱلضَّخْمَ

خَلْفَهُ ؛ فَتَعَذَّرَ عَلَيْنا ٱلخُروجُ . وَعِنْدَما حَلَّ ٱلمَساءُ ، عادَ ٱلمارِدُ ثانِيةً ، وَأَخَذَ يَرْفَعُنا بِيَدِهِ ، واحِدًا تِلْوَ ٱلآخَرِ ، حَتَّى وَجَدَ ضالَّتَهُ في شَخْصِ رُبَّانِ ٱلسَّفينةِ ؛ فَأَكَلَهُ وَنامَ .

فِرارُنا مِنَ ٱلمارِدِ

بَعْدَ أَنْ غادَرَ ٱلمارِدُ ٱلْبَيْتَ في صَباحِ ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالي ، وَأَوْصَدَ ٱلبابَ خَلْفَهُ ، خاطَبْتُ أَصْحابي قائِلًا : « عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا ، وَإِلّا فَسَيَأْكُلُنا ٱلمارِدُ واحِدًا بَعْدَ ٱلآخَرِ . إِنَّهُ ضَخْمٌ فَلا نَسْتَطيعُ ٱلفَتْكَ بِهِ في حالَةِ يَقَظَتِهِ . » ثُمَّ أَطْلَعْتُهُمْ عَلى ٱلخُطَّةِ ٱلَّتي دَبَّرْتُها .

في مَساءِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ، حَضَرَ ٱلمارِدُ – كَعادَتِهِ – وَجَلَسَ في ٱلقاعةِ ، وَأَخَذَ واحِدًا مِنّا وَٱلْتَهَمَهُ ، ثُمَّ نامَ .

وَبِمُنْتَهى ٱلسُّرْعةِ شَرَعْنا في تَنْفيذِ خُطَّتِنا : وَضَعَ ٱثْنانِ مِنّا قَضيبَيْنِ مِنَ ٱلحَديدِ في ٱلنّارِ حَتَّى أَصْبَحا مِثْلَ جَمْرَتَيْنِ ، وَفي نَفْسِ ٱلوَقْتِ قامَ ٱثْنانِ آخَرانِ بِخَرْقِ مَنْفَذٍ في ٱلبابِ ، عَلى حِينَ ٱنْصَرَفَ ٱثْنانِ إِلى بِناءِ عِدَّةِ أَطْوافٍ مِنْ قِطَعِ ٱلخَشَبِ ٱلَّتي كانَ ٱلمارِدُ قَدْ وَضَعَها في ٱلصُّنْدوقِ .

وَما إِنْ تَمَّ كُلُّ شَيْءٍ حَسْبَ ٱلخُطَّةِ ٱلمَرْسومةِ ، حَتَّى صِحْتُ فيهِمْ قائِلًا : « ٱلآنَ ! » وَهِيَ كَلِمةُ ٱلسِّرِّ بَيْنَنا . فَغَرَزْنا ٱلقَضيبَيْنِ ٱلمُلْتَهِبَيْنِ في عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ وَلَّيْنا ٱلأَدْبارَ ، حامِلينَ ٱلأَطْوافَ ٱلَّتي أَعْدَدْناها ، وَجَرَيْنا نَحْوَ ٱلشّاطِئِ .

وَكانَتْ صَرَخاتُ ٱلمارِدِ تَطِنُّ في آذانِنا . وَأَنْزَلْنا ٱلأَطْوافَ إِلى ٱلماءِ . وَما

كِدْنا نَتَحَرَّكُ ، حَتَّى رَأَينا ٱلمارِدَ ، يَقودُهُ اثْنانِ مِنْ أَصْدِقائِهِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ بَصَرَهُ ، يَسيرونَ إلى ٱلشَّاطِئِ . وَما إنْ أَبْصَرانا حَتَّى قَذَفانا بِالصُّخورِ ٱلكَبيرةِ ، وَكانَتِ ٱلواحِدةُ مِنْها في حَجْمِ ٱلبَيْتِ . وَقَدْ سَقَطَ بَعْضُها في ٱلبَحْرِ ، وَأَصابَ بَعْضُها ٱلآخَرُ أَطْوافَنا ، وَقَتَلَ بَعْضَ رِجالِنا . وَلَمْ يَنْجُ إلَّا ٱلطَّوْفُ الَّذي كُنْتُ فيهِ . وَقَدْ بَذَلْنا أَقْصى ٱلجُهودِ نُحاوِلُ ٱلخُروجَ بِهِ إلى عُرْضِ ٱلبَحْرِ . ثُمَّ هَبَّتْ عَواصِفُ عاتِيةٌ حَمَلَتْنا بَعيدًا ، وَظَلَّتْ تَتَقاذَفُنا أَيّامًا ، إلى أَنْ أَلْقَتْ بِنا عَلى شاطِئِ جَزيرةٍ .

ٱلْأَفْعــى

لَمْ تُكْتَبِ ٱلنَّجاةُ إلَّا لِثَلاثةٍ مِنَّا . وَلٰكِنَّ أَحْوالَنا كانَتْ سَيِّئةً ، فَكانَ قَدْ مَضى عَلَيْنا وَقْتٌ طَويلٌ بِدونِ طَعامٍ أَوْ ماءٍ . وَفي ٱلجَزيرةِ وَجَدْنا أَشْجارَ فاكِهةٍ وَنُهَيْرًا عَذْبَ ٱلمِياهِ ، فَأَكَلْنا وَشَرِبْنا .

بَعْدَ تِلْكَ ٱلرِّحْلةِ ٱلمُضْنِيةِ في ٱلطَّوْفِ ، غَزا النُّعاسُ أَجْفانَنا ؛ فَرُحْنا في سُباتٍ عَميقٍ ، وَلَمْ يوقِظْنا إلَّا فَحيحٌ مُتَواصِلٌ . وَنَظَرْنا حَوْلَنا .. وَيالَهَوْلِ ما رَأَيْنا ! رَأَيْنا أَفْعًى ضَخْمةً ٱلْتَفَّتْ حَوْلَنا ، بِحَيْثُ لَمْ نَسْتَطِعِ ٱلفِرارَ . ثُمَّ بَدَأَتْ بِواحِدٍ مِنْ صاحِبَيَّ ، فابْتَلَعَتْهُ دونَ أَنْ تَنْهَشَ لَحْمَهُ ، بَلْ رَأَيْناهُ وَهُوَ يَدْخُلُ في جَوْفِها ، وَسَمِعْنا صَيْحاتِ اسْتِغاثَتِهِ تَتَرَدَّدُ بَعْضَ ٱلوَقْتِ ثُمَّ تَهْمَدُ إلى ٱلأَبَدِ .

قَضَتِ ٱلأَفْعى ٱللَّيْلةَ بِطُولِها في مَكانِها ، عَلى حِينَ تَمَلَّكَني وَصاحِبي ٱلذُّعْرُ ؛ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ أَحَدُنا أَوْ يَنْبِسْ بِكَلِمةٍ . وَفي ٱلصَّباحِ ، انْسابَتْ زاحِفةً إلى

جُحْرِها . وَتَشاوَرْتُ وَصاحِبي فيما يَجِبُ عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَهُ ، قَبْلَ أَنْ تَعودَ ٱلأَفْعى وَتَبْتَلِعَ أَحَدَنا . وَأَخَذْنا نَجُولُ بَيْنَ ٱلأَشْجارِ وَنَقْطِفُ ٱلثِّمارَ وَنَرْتَوي مِنْ مِياهِ ٱلنُّهَيْرِ ، وَنَحْنُ نَبْحَثُ عَنْ كَهْفٍ نَخْتَبِئُ فيهِ ؛ وَلٰكِنَّنا فَشِلْنا في مُحاوَلَتِنا . وَقَبْلَ حُلولِ ٱلظَّلامِ صَعِدْنا شَجَرةً لِنَنامَ فَوْقَها . وَلَمَّا كُنْتُ أَتَفَوَّقُ عَلى زَميلي في ٱلقُوَّةِ ٱلجِسْمِيَّةِ ، فَقَدِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَصْعَدَ أَعْلى مِنْهُ . وَلَمَّا حَلَّ ٱللَّيْلُ ، عادَتِ ٱلأَفْعى تَبْحَثُ عَنَّا . فَتَسَلَّقَتِ ٱلشَّجَرةَ وَابْتَلَعَتْ صاحِبي . وَظَلَلْتُ هُنَيْهةً أَسْمَعُ صَيْحاتِ ٱلاسْتِغاثةِ مِنْ جَوْفِ ٱلأَفْعى تَطِنُّ في أُذُنَيَّ . وَهٰكَذا وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدًا .

في ٱلصَّباحِ ، غادَرَتِ ٱلأَفْعى ٱلمَكانَ ، فَساءَلْتُ نَفْسي : « ماذا عَسايَ أَنْ أَفْعَلَ ؟ سَتَعودُ ٱلأَفْعى لَيْلًا وَتَفْعَلُ بي ما فَعَلَتْ بِصاحِبَيَّ . هَلْ أَقْذِفُ بِنَفْسي في ٱلبَحْرِ لِأَنْجُوَ مِنْ شَرِّها ؟ »

بَعْدَ أَنْ تَناوَلْتُ بَعْضَ ٱلفاكِهةِ ، أَخَذْتُ أُفَكِّرُ ، وَأُفَكِّرُ . وَأَخيرًا قَرَّرْتُ أَنْ أَسيرَ عَلى شاطِئِ ٱلبَحْرِ . وَلِحُسْنِ ٱلحَظِّ لَمْ أَرَ لِلْقُرودِ أَثَرًا في تِلْكَ ٱلجَزيرةِ . وَلٰكِني رَأَيْتُ أَكْوامًا مِنَ ٱلخَشَبِ وَٱلحِبالِ ، وَكانَتْ مِنْ بَقايا سُفُنٍ مُحَطَّمةٍ . وَعَلى ٱلفَوْرِ اخْتَرْتُ قِطَعًا طَويلةً مِنَ ٱلخَشَبِ وَضَعْتُها حَوْلَ قَدَمَيَّ وَفَوْقَ رَأْسي وَحَوْلَ جِسْمي وَجانِبَيَّ ، وَشَدَدْتُها بِٱلحِبالِ لِأُثَبِّتَها ، وَرَقَدْتُ عَلى ٱلأَرْضِ انْتِظارًا لِما سَيَحْدُثُ .

لَمَّا هَبَطَ ٱللَّيْلُ ، رَأَيْتُ ٱلأَفْعى تَفْتَحُ فَمَها وَتَنْقَضُّ عَلى رَأْسي ، وَعَلى جانِبي ، وَعَلى قَدَمَيَّ وَعَلى ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ مِنْ جِسْمي ، وَلٰكِنَّها فَشِلَتْ في

ٱلوُصولِ إلَيَّ . فَقَدْ مَنَعَتْها قِطَعُ ٱلخَشَبِ مِنْ تَحْقيقِ مَأْرَبِها . وَرَغْمَ مُحاوَلاتِها ٱلمُتَكَرِّرةِ لَمْ تُفْلِحْ في ٱلوُصُولِ إلى أَيِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضاءِ جِسْمي . وَلَمَّا أَعْيَتْها ٱلحِيَلُ ، غادَرَتِ ٱلمَكانَ .

في ٱلصَّباحِ ، صَنَعْتُ لِنَفْسي زَوْرَقًا مِنْ بَقايا حُطامِ ٱلسُّفُنِ وَقِطَعِ ٱلخَشَبِ وَٱلحِبالِ ، ثُمَّ جَمَعْتُ بَعْضَ ٱلفاكِهةِ ، وَمَلَأْتُ بَعْضَ ٱلأَواني بِٱلماءِ ، وَنَزَلْتُ ٱلبَحْرَ هَرَبًا مِنْ تِلْكَ ٱلجَزيرةِ ٱلرَّهيبةِ .

سَفينــةُ ٱلنَّجــاةِ

لا أُريدُ أَنْ أَتَذَكَّرَ تِلْكَ ٱلأَيَّامَ ٱلَّتي قَضَيْتُها في عُرْضِ ٱلبَحْرِ عَلى زَوْرَقٍ مَكْشوفٍ ، حينَما كانَتِ ٱلشَّمْسُ تَلْفَحُني بِحَرارَتِها ٱلمُتَوَهِّجةِ ، وَٱلأَمْواجُ تَقْذِفُ بِالزَّوْرَقِ هُنا وَهُناكَ . وَلٰكِنْ ، ما بَعْدَ ٱلعُسْرِ إلَّا ٱليُسْرُ ، وَما بَعْدَ ٱلضِّيقِ إلَّا ٱلفَرَجُ ، فَقَدْ لاحَتْ لي عَنْ بُعْدٍ سَفينةٌ تَمْخُرُ عُبابَ ٱلبَحْرِ .

وَقَدْ لَعِبَ ٱلحَظُّ دَوْرَهُ ، عِنْدَما شاهَدَني بَحَّارَتُها ؛ فَأَسْرَعوا لِإِنْقاذي ، وَأَحْسَنوا مُعامَلَتي . وَقَدْ سَمِعَ ٱلرُّبَّانُ وَبَعْضُ ٱلبَحَّارةِ بِمَأْساتي ؛ فَطَيَّبَ ٱلرُّبَّانُ خاطِري قائِلًا : « سَنَحْمِلُكَ إلى ٱلبَصْرةِ ، بَعْدَ زِيارَتِنا لِبَعْضِ ٱلأَماكِنِ ، حَيْثُ سَيَبيعُ ٱلتُّجَّارُ بَضائِعَهُمْ وَيَبْتاعونَ غَيْرَها . وَإذا ما طابَتِ ٱلرِّيحُ في رِحْلَتِنا ، حَمَلْناكَ إلى ٱلبَصْرةِ في أَقْرَبِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ . »

وَفي أَوَّلِ ميناءٍ رَسَتْ فيهِ ٱلسَّفينةُ ، سَمِعْتُ ٱلرُّبَّانَ يُلْقي بِأَوامِرِهِ إلى

ٱلبَحَّارةِ : « أَحْضِروا بَضائِعَ ٱلسِّنْدِبادِ لِنَبيعَها وَنُسَلِّمَ ثَمَنَها إلى أُسْرَتِهِ في بَغْدادَ . »

وَلَمَّا سَمِعْتُ ما قالَهُ ٱلرُّبَّانُ ، تَقَدَّمْتُ مِنْهُ وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ تَحْمِلُ ٱلبَضائِعُ عَلاماتٍ مُمَيِّزةً ؟ » لِأَنِّي أَضَعُ عَلاماتٍ خاصَّةً دائِمًا عَلى بَضائِعي وَصَنادِيقي في جَميعِ رِحْلاتي . فَأَجابَني ٱلرُّبَّانُ : « نَعَمْ ! إنَّ ٱلبِضاعةَ تَحْمِلُ عَلاماتٍ مُمَيِّزةً . وَلٰكِنْ ، كَيْفَ عَرَفْتَ ذٰلِكَ ؟! لَقَدْ مَضى عَلى هٰذِهِ ٱلبِضاعةِ زَمَنٌ طَويلٌ وَهِيَ أَسْفَلُ جَميعِ ٱلبَضائِعِ ٱلأُخْرى ، وَقَدْ لَقِيَ صاحِبُها حَتْفَهُ في جَزيرةِ ٱلرُّخِّ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ . »

فَفاجَأْتُهُ بِقَوْلي : « أَيُّها ٱلرُّبَّانُ ! إنَّ صاحِبَها لَمْ يَمُتْ ، بَلْ هُوَ حَيٌّ يُرْزَقُ ، فَأَنا ٱلسِّنْدِبادُ . »

وَرَوَيْتُ لَهُ ما جَرى لِيَ مُنْذُ ٱلبِدايةِ حَتَّى ٱلنِّهايةِ . وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلسَّهْلِ عَلى ٱلرُّبَّانِ أَنْ يُصَدِّقَني في ٱلحالِ . وَلٰكِنَّهُ اقْتَنَعَ أَخيرًا بِصِدْقِ قَوْلي ، لِما أَوْرَدْتُهُ مِنْ أَدِلَّةٍ واضِحةٍ . وَبَعْدَ أَنْ بِعْتُ بِضاعَتي وَاشْتَرَيْتُ غَيْرَها لِأَبيعَها في بَغْدادَ ، وَجَدْتُ ثَرْوَتي قَدِ ازْدادَتْ أَضْعافًا مُضاعَفةً بَعْدَ ٱلرِّحْلةِ ٱلثَّالِثةِ . وَقَدْ عَزَمْتُ عَلى أَنْ أَعيشَ سَعيدًا في بَغْدادَ دونَ أَنْ أُغامِرَ في أَيَّةِ رِحْلةٍ أُخْرى .

وَلٰكِنَّني أَخْلَفْتُ ٱلوَعْدَ ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ غَدًا – إنْ شاءَ ٱللهُ – عَنْ رِحْلَتي ٱلرَّابِعةِ .

الرِّحْلَةُ الرَّابِعةُ

في يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، قَدِمَ لِزِيارَتي بَعْضُ التُّجَّارِ ، وَجَلَسْنا نَسْتَعيدُ ذِكْرَياتِ الأَيَّامِ الخالِيةِ ، بِما فِيها مِنْ رِحْلاتٍ ، وَبِما زُرْنا مِنْ أَماكِنَ . وَلَمْ يَحْضُرْنا في حَديثِنا إِلَّا حُلْوُ الذِّكْرَياتِ . وَتَطَرَّقَ بِنا الحَديثُ إِلى ضَرُورةِ القِيامِ بِرِحْلةٍ إِلى الشَّرْقِ ، لِما فيها مِنْ فَوائِدَ لَنا . وَما إِنِ اتَّفَقْنا حَتَّى حَزَمْتُ بَعْضَ البَضائِعِ ، وَأَبْحَرْنا جَنوبًا فَشَرْقًا قاصِدينَ بُلْدانَ الشَّرْقِ الغَنِيَّةِ بِخَيْراتِها . وَقَدْ أَخَذَتِ السَّفينةُ تَتَنَقَّلُ بِنا مِنْ جَزيرةٍ إِلى جَزيرةٍ ، وَمِنْ بَحْرٍ إِلى بَحْرٍ ، نَبيعُ وَنَشْتَري ، وَنُمَتِّعُ عُيونَنا بِمَباهِجِ الحَياةِ في تِلْكَ البِلادِ .

وَفي إِحْدَى اللَّيالي ، وَنَحْنُ عَلى بُعْدٍ شاسِعٍ مِنَ الوَطَنِ ، هَبَّتْ عَلَيْنا عاصِفةٌ هَوْجاءُ أَطاحَتْ بِالسَّفينةِ وَقَلَبَتْها عَلى جانِبِها ، وَقَذَفَتْ بِنا وَسَطَ البَحْرِ . وَأَصْبَحْنا تَحْتَ رَحْمَتِهِ ، وَأَيْقَنْتُ وَأَنا أُشاهِدُ السَّفينةَ تَغُوصُ في أَعْماقِ البَحْرِ أَنَّها ساعَتي الأَخيرةُ . وَبَيْنَما كُنْتُ أُصارِعُ الأَمْواجَ ، رَأَيْتُ لَوْحًا مِنَ الخَشَبِ يَقْتَرِبُ مِنِّي ، فَأَمْسَكْتُ بِهِ بَيْنَ ذِراعَيَّ ، وَعاوَنْتُ بَعْضَ التُّجَّارِ وَالبَحَّارةِ عَلى أَنْ يَتَعَلَّقُوا بِأَلْواحٍ خَشَبِيَّةٍ أُخْرى كانَتْ تَطْفُو فَوْقَ الماءِ .

أَحْياءٌ عَلى الشَّاطِئِ

اسْتَمَرَّتِ الرِّياحُ وَالأَمْواجُ تَدْفَعُنا إِلى أَنْ قَذَفَتْ بِنا عَلى اليابِسةِ . وَمِنْ شِدَّةِ

ما لَحِقَنا مِنْ تَعَبٍ ، قَضَيْنا لَيْلَتَنا حَيْثُ كُنَّا . وَما إِنْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ ، حَتَّى طَلَعَ عَلَيْنا بَعْضُ الرِّجالِ ، وَكانُوا شَديدِي البَشاعةِ . وَأَخَذُونا إِلى مَلِكِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَوْسَعُونا ضَرْبًا بِأَيْديهِمْ وَرَكْلًا بِأَقْدامِهِمْ .

وَلَمَّا مَثُلْنا أَمامَ المَلِكِ ، أَمَرَ رِجالَهُ بِإِجْلاسِنا وَتَقْديمِ الطَّعامِ لَنا . وَكانَ الطَّعامُ غَريبًا ، لَمْ أَرَ لَهُ مَثيلًا مِنْ قَبْلُ . وَلٰكِنَّ الجُوعَ دَفَعَ التُّجَّارَ وَالبَحَّارةَ إِلى تَناوُلِهِ ، أَمَّا أَنا ، فَلَمْ تَقْبَلْهُ نَفْسي ، لِأَنَّ مُجَرَّدَ النَّظَرِ إِلَيْهِ أَصابَني بِالغَثَيانِ .

ما أَسْعَدَني ! فَالحَظُّ لَمْ يُفارِقْني . لَقَدْ تَرَكَ الطَّعامُ أَثَرًا غَريبًا في أَصْحابي ، فَرَأَيْتُهُمْ يُقْبِلونَ عَلَيْهِ بِشَراهةٍ وَنَهَمٍ وَبَلاهةٍ ، حَتَّى إِنَّ الواحِدَ مِنْهُمْ كانَ يَغْرِفُ الطَّعامَ بِكِلْتا يَدَيْهِ لِيُشْبِعَ نَهَمَهُ . كُلُّ هٰذا كانَ يَجْري عَلى مَشْهَدٍ مِنِّي . وَقَدْ تَذَكَّرْتُ في تِلْكَ اللَّحْظةِ ما كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُهُ عَنْ هٰؤُلاءِ الرِّجالِ البَشِعينَ الَّذينَ إِذا وَقَعَ في أَيْديهِمْ أُناسٌ مِنْ بُلْدانٍ أُخْرى ، قَدَّمُوا لَهُمْ مِثْلَ هٰذا الطَّعامِ الَّذي يَجْعَلُ آكِليهِ يُقْبِلونَ عَلَيْهِ بِشَراهةٍ ، فَيَزْدادونَ سِمْنةً بِشَكْلٍ عَجيبٍ . وَبَعْدَها يُقَدَّمونَ وَجْبةً شَهِيَّةً لِلرِّجالِ البَشِعينَ . وَلَمْ يَسَعْني إِلَّا أَنْ أَصْرُخَ فيهِمْ ، طالِبًا مِنْهُمْ أَنْ يَتَوَقَّفُوا عَنِ الأَكْلِ ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَجيبُوا لِدَعْوَتي ، إِذْ كانَ هَمُّهُمُ الوَحيدُ حَشْوَ بُطونِهِمْ ، وَلا شَيْءَ سِواهُ .

الْفِـرارُ

أَخَذَ أَصْحابي يَزْدادُونَ سِمْنةً ، يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ ، وَكانَ الرِّجالُ البَشِعُونَ لا يُفارِقُونَهُمْ ، وَلا يَنْقَطِعونَ عَنْ حَثِّهِمْ عَلى تَناوُلِ المَزيدِ مِنَ الطَّعامِ ، في الوَقْتِ

الَّذي كانُوا يَرَوْنَني أَزْدادُ هُزالًا ، لِانْقِطاعي عَنِ ٱلطَّعامِ ، وَلا يَحْفِلُونَ بي ، لِأَنَّ ما عِنْدَهُمْ يَكْفيهِمْ .

وَكانَ ٱلأَلَمُ يَعْصِرُني ، وَأَنا أَرى ما يَفْعَلُهُ أَصْحابي ، وَأَتَخَيَّلُ ٱلمَصيرَ الَّذي يَنْتَظِرُهُمْ . فَقُلْتُ لِنَفْسي : « لَيْسَ لَدَيَّ مِنْ سَبيلٍ إلى إنْقاذِهِمْ ، وَلٰكِنْ عَلَيَّ أَنْ أَنْجُوَ بِنَفْسي ، لِأَنَّ بَقائي دُونَ طَعامٍ يُعَجِّلُ بِهَلاكي . إنَّ أَصْحابي لَمْ يَسْتَطيعُوا ٱلابْتِعادَ عَنِ ٱلرِّجالِ ٱلبَشِعِينَ ، بَلْ قُلْ إنَّهُمْ ما كانُوا يُرِيدُونَ ذٰلِكَ ، مادامَ ٱلرِّجالُ ٱلبَشِعُونَ لا يَنْقَطِعُونَ عَنْ وَضْعِ ٱلطَّعامِ أَمامَهُمْ . وَلَمْ يُكَلِّفْ

أَحَدٌ مِنَ ٱلبَشِعِينَ نَفْسَهُ ٱلنَّظَرَ إلى رَجُلٍ هَزيلٍ مِثْلي . وَقَدْ يَسَّرَ ذٰلِكَ سُبُلَ ٱلنَّجاةِ أَمامي ، عِنْدَما ٱخْتَبَأْتُ ذاتَ يَوْمٍ تَحْتَ شَجَرةٍ ، وَمِنْها سِرْتُ إلى ٱلغابةِ ، حَيْثُ وَجَدْتُ بَعْضَ ٱلفاكِهةِ ٱلَّتي أَعْرِفُها ، وَٱلَّتي لا يُشَكِّلُ تَناوُلُها خَطَرًا .

وَأَفادَتْني ٱلفاكِهةُ في اسْتِعادةِ قُوَّتي ، فَاسْتَطَعْتُ ٱلإِسْراعَ في سَيْري . وَقَدْ قَضَيْتُ أُسْبوعًا ، أَسيرُ مَرَّةً وَأَتَوَقَّفُ أُخْرى لِتَناوُلِ ٱلفاكِهةِ وَشُرْبِ ٱلماءِ ، إلى أَنْ لَقِيتُ جَماعةً مِنَ ٱلرِّجالِ . وَعِنْدَما رَآني أُولٰئِكَ ٱلرِّجالُ أَسْرَعُوا إلَيَّ ، وَسُيوفُهُمْ في أَيْديهِمْ ، فَصَرَخْتُ فيهِمْ : « أَرْجُوكُمْ أَنْ تَسْتَمِعُوا إلَيَّ . »

وَكَشَفْتُ لَهُمْ عَنْ هُوِيَّتي وَحَدَّثْتُهُمْ عَنِ ٱلبَلَدِ الَّذي قَدِمْتُ مِنْهُ . وَأَخْبَروني بِأَنَّ مِنْ عادَتِهِمْ أَنْ يَجيئُوا مَرَّةً كُلَّ عامٍ إلى تِلْكَ ٱلجَزيرةِ وَلٰكِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ شَرَّ ٱلرِّجالِ ٱلبَشِعِينَ .

سَرْجُ ٱلمَلِكِ

وَمِمَّا قالُوهُ لِي : « لَمْ تُكْتَبِ ٱلسَّلامَةُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِكَ وَطِئَتْ قَدَماهُ أَرْضَ هٰذِهِ ٱلجَزيرةِ . » وَاصْطَحَبُوني مَعَهُمْ عِنْدَ عَوْدَتِهِمْ إلى جَزيرَتِهِمْ . وَقَدْ سَمِعَ ٱلمَلِكُ حِكايَتي ، وَرَغِبَ في ٱلتَّحَدُّثِ إلَيَّ . وَقَدْ كانَ مِثالًا لِلطِّيبةِ وَكَرَمِ ٱلخُلُقِ ، حَتَّى إنَّهُ خَصَّصَ لي غُرْفةً في قَصْرِهِ ٱلفَخْمِ . وَكَثيرًا ما كانَ يَسْتَدْعِيني لِلاسْتِماعِ إلى مُغامَراتي في رِحْلاتي ، وَأَحادِيثي عَنْ مَدينةِ بَغْدادَ ٱلعَظيمةِ . وَٱلحَقُّ يُقالُ إنَّ عاصِمةَ مَمْلَكَتِهِ كانَتْ عامِرةً بِأَهْلِها ، غَنِيَّةً في كُلِّ ناحِيةٍ مِنْ نَواحِي ٱلحَياةِ إلَّا في شَيْءٍ واحِدٍ . فَقَدْ كانَ ٱلنّاسُ يَرْكَبونَ ٱلخَيْلَ بِلا سُروجٍ ، مَعَ أَصالةِ تِلْكَ ٱلخُيولِ وَبَراعةِ فُرْسانِها .

وَقَدْ سَأَلْتُ آلمَلِكَ يَوْمًا : « أَيُّها آلمَلِكُ آلعَظيمُ ، لِمَ لا تَسْتَعْمِلُ آلسَّرْجَ عِنْدَ رُكوبِكَ آلحِصانَ ؟ »

دَهِشَ آلمَلِكُ وَسَأَلَني : « ماذا تَقُولُ ؟ ما هُوَ آلسَّرْجُ آلَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ ؟ »

وَكانَ جَوابي : « هَلْ تَأْذَنُ لي يامَوْلايَ أَنْ أَصْنَعَ لَكَ سَرْجًا ، إذا ما اسْتَعْمَلْتَهُ ، وَجَدْتَ فيهِ آلجَوابَ عَنْ سُؤالِكَ ، وَلَمَسْتَ عَظيمَ فَوائِدِهِ ؟ »

وَسَرْعانَ ما صَنَعْتُ سَرْجًا فاخِرًا ، وَوَضَعْتُهُ عَلى ظَهْرِ حِصانِهِ . وَبَعْدَ أَنْ رَكِبَهُ سُرَّ بِآلسَّرْجِ كَثيرًا . وَانْهالَتْ عَلَيَّ بَعْدَها طَلَباتُ رِجالِ حاشِيَةِ آلمَلِكِ وَعِلْيَةِ آلقَوْمِ لِصُنْعِ آلسُّروجِ ، فَكَسَبْتُ آلأَمْوالَ آلكَثيرَةَ مِنْ صِناعَتِها ، عِلاوَةً عَلى آلسَّعادَةِ آلَّتي كُنْتُ أُحِسُّ بِها لِلصَّداقَةِ آلَّتي كانَتْ تَرْبُطُني بِآلمَلِكِ وَرِجالِهِ .

زَواجي

ذاتَ يَوْمٍ ، قالَ لِيَ آلمَلِكُ : « لَقَدْ أَصْبَحْتَ واحِدًا مِنّا ، نُوليكَ صادِقَ حُبِّنا كَأَخٍ لَنا . وَلٰكِنَّ ثَمَّةَ شَيْئًا يُقَرِّبُكَ مِنّا أَكْثَرَ . »

وَبِكُلِّ أَدَبٍ قُلْتُ لَهُ : « أَيُّها آلمَلِكُ آلعَظيمُ ! أَمْرُكَ مُطاعٌ ، وَلَنْ أَرُدَّ لَكَ أَمْرًا . »

أَثْلَجَتْ كَلِماتي صَدْرَهُ ، فَابْتَسَمَ قائِلًا : « عَلَيْكَ بِالزَّواجِ يابُنَيَّ ! ففي

آلمَدينَةِ فَتاةٌ عَلى جانِبٍ كَبيرٍ مِنَ آلجَمالِ وَآلثَّراءِ ، وَهِيَ ابْنَةُ أَحَدِ أَصْدِقائي ، وَهٰأَنَذا أَدْعوكَ إِلى آلاقْتِرانِ بِها . »

وَسَرْعانَ ما تَمَّتْ مَراسِمُ آلزَّواجِ ، وَزُفَّتِ آلعَروسُ إِلَيَّ . وَكَما قالَ آلمَلِكُ فَإِنَّ زَوْجَتي كانَتْ ذاتَ ثَرْوَةٍ وَجَمالٍ ، وَكانَتْ تَتَمَتَّعُ بِما هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِكَ ، فَقَدْ وَجَدْتُ فيها ما جَعَلَني أُحِبُّها وَتُحِبُّني . وَعِشْنا في مُنْتَهى آلسَّعادَةِ لِعِدَّةِ أَسابيعَ .

وَذاتَ يَوْمٍ ماتَتْ زَوْجَةُ أَحَدِ أَصْدِقائي ، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ مُعَزِّيًا ، عَمَلًا بِما تَقْتَضيهِ رَوابِطُ آلصَّداقَةِ ساعَةَ آلحُزْنِ . وَلٰكِنّي وَجَدْتُهُ لَيْسَ حَزينًا فَقَطْ ، بَلْ مَريضًا . وَلَمَّا اقْتَرَبْتُ مِنْ فِراشِهِ ، خاطَبْتُهُ بِقَوْلي : « ياصَديقي ! إِنَّها إِرادَةُ آللهِ ، وَلا يَحْسُنُ بِالإِنْسانِ أَنْ يَسْتَسْلِمَ إِلى آلحُزْنِ ، إِذا فَقَدَ زَوْجَتَهُ . وَما عَلَيْكَ إِلَّا آلصَّبْرُ ، وَتَعْويدُ نَفْسِكَ عَلى آلعَيْشِ بِدونِها . »

كَهْفُ آلمَوْتى

كانَتْ مُفاجَأَةً لي عِنْدَما رَدَّ عَلَيَّ قائِلًا : « ماذا تَقولُ ياصاحِبي ؟ أَلا تَعْرِفُ آلقانونَ آلَّذي يَحْكُمُنا في هٰذا آلبَلَدِ ، وَآلَّذي يَقْضي بِأَنْ يُدْفَنَ آلحَيُّ مَعَ آلمَيِّتِ ؟ فَالزَّوْجَةُ إِذا ماتَ زَوْجُها ، دُفِنَتْ مَعَهُ حَيَّةً ، كَما أَنَّ آلزَّوْجَ إِذا ماتَتْ زَوْجَتُهُ ، دُفِنَ مَعَها حَيًّا . اعْلَمْ ياأَخي ، إِنَّهُمْ سَيُلْقُونَ بِي بَعْدَ ظُهْرِ هٰذا آليَوْمِ ، في كَهْفِ آلمَوْتى إِلى أَنْ أَموتَ . »

وَبَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ آليَوْمِ ، حُمِلَ جُثْمانُ آلزَّوْجَةِ خارِجَ آلمَدينَةِ ، إِلى مَكانٍ

في جانِبِ ٱلجَبَلِ ، وَأَزاحُوا صَخْرَةً كَبيرةً عَنْ مَدْخَلِ ٱلكَهْفِ ، وَأَلْقَوْا بِالجُثْمانِ فيهِ . ثُمَّ جاءُوا بِالْحِبالِ وَاسْتَخْدَموها في إنْزالِ صَديقي في كَهْفِ ٱلمَوْتَى ، إلى جانِبِ زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ أَعادوا ٱلصَّخْرَةَ إلى مَكانِها . وَكانَ ٱلجُنودُ يَمْنَعونَ مَنْ يُحاوِلُ ٱلاقْتِرابَ مِنَ ٱلكَهْفِ . وَلَمَّا سَأَلْتُ ٱلمَلِكَ عَنْ ذٰلِكَ أَجابَني : « إنَّها عادةٌ قَديمةٌ مُتَوارَثةٌ ، وَلا أَسْتَطيعُ إلْغاءَها . »

في كَهْفِ ٱلمَوْتى

لَمْ يَمْضِ عَلى زَواجي ٱلسَّعيدِ سِوَى بِضْعَةِ أَسابيعَ ، حَتَّى مَرِضَتْ زَوْجَتي فَتْرةً ثُمَّ ماتَتْ . وَحَضَرَ ٱلقَوْمُ لِنَقْلِ جُثْمانِها إلى كَهْفِ ٱلمَوْتى ، فَقُلْتُ لَهُمْ : « لَنْ تَأْخُذوني مَعَها إلى ٱلقَبْرِ ، لِأَنّي لَسْتُ مِنْ بَلَدِكُمْ ، وَلا يَنْطَبِقُ عَلَيَّ قانونُكُمْ . » غَيْرَ أَنَّهُمْ أَخَذوا يُواسُونَني في مُصابي وَطَلَبوا إلَيَّ ٱلتَّحَلّي بِٱلشَّجاعةِ ، وَأَبْلَغوني أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ أَلْحَقَ بِزَوْجَتي لِأَنَّني صِرْتُ – في نَظَرِهِمْ – واحِدًا مِنْهُمْ .

لَمْ أَشْعُرْ إلَّا وَقَدْ لَفُّوا ٱلحِبالَ حَوْلَ جِسْمي ، وَحَمَلُوني إلى ٱلكَهْفِ . وَهُناكَ خَلَّصوني مِنَ ٱلقُيودِ ، وَأَرْغَموني عَلى ٱلنُّزولِ إلى ٱلكَهْفِ بِاسْتِخْدامِ ٱلحِبالِ . وَسَدُّوا بابَهُ بِٱلصَّخْرةِ ، فَلَمْ أَعُدْ أَرى شَيْئًا داخِلَ ٱلكَهْفِ . وَبَعْدَ قَليلٍ لاحَ لي شُعاعٌ ضَئيلٌ مِنَ ٱلنُّورِ ، وَتَبَيَّنَ لي أَنَّهُمْ كانوا يَدْفِنونَ مَعَ ٱلمَوْتى جَواهِرَهُمْ وَحُلِيَّهُمْ . وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُمَيِّزَ ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلحِبالِ ٱلَّتي كانَتْ تُسْتَعْمَلُ في إنْزالِ مَنْ يُدْفَنونَ أَحْياءً .

فَجْأَةً سَمِعْتُ حَرَكةً في ٱلكَهْفِ ، وَرَأَيْتُ حَيوانًا يُشْبِهُ ٱلثَّعْلَبَ . وَلَمَّا حاوَلْتُ ٱلإمْساكَ بِهِ عَضَّ يَدي وَأَفْلَتَ مِنّي هارِبًا . وَدَعاني هٰذا ٱلحادِثُ إلى ٱلتَّفْكيرِ : « إنَّ وُجودَ ٱلحَيواناتِ دَليلٌ عَلى وُجودِ فُتْحةٍ تَدْخُلُ مِنْها إلى ٱلكَهْفِ . وَعَلَيَّ أَنْ أَجْعَلَ مِنْها دَليلي في ٱلخُروجِ مِنْهُ . »

جُحْـرُ ٱلثَّعْلَـبِ

حاوَلْتُ أَنْ أَرْمِيَ حَبْلًا حَوْلَ أَحَدِ هٰذِهِ ٱلحَيواناتِ ، وَلٰكِنّي لَمْ أُفْلِحْ ؛ فَكَرَّرْتُ ٱلمُحاوَلةَ عَشَراتِ ٱلمَرَّاتِ . وَأَخيرًا رَمَيْتُ ٱلحَبْلَ فَٱلتَفَّ حَوْلَ أَحَدِها فَجَرَى ، وَتَبِعْتُهُ وَٱلحَبْلُ في يَدي ، إلى نِهايةِ ٱلكَهْفِ ، حَتّى وَجَدْتُ فُتْحةً يَسْتَطيعُ ثَعْلَبٌ أَنْ يَمُرَّ مِنْها ، وَلٰكِنْ تَعَذَّرَ عَلَيَّ ذٰلِكَ .

أَخَذْتُ في تَوْسيعِ ٱلفُتْحةِ ، وَٱسْتَغْرَقَ ذٰلِكَ مِنّي وَقْتًا طَويلًا ، وَنَجَحْتُ في ٱلخُروجِ حَيْثُ ٱلهَواءُ ٱلطَّلْقُ وَٱلسَّماءُ ٱلصّافيةُ . وَوَجَدْتُ نَفْسي قَريبًا مِنَ ٱلبَحْرِ أَسْفَلَ جُرْفٍ صَخْريٍّ عالٍ لا يُمْكِنُ تَسَلُّقُهُ صُعودًا أَوْ نُزولًا . ثُمَّ وَجَدْتُ ٱلماءَ في أَحَدِ ٱلنُّهَيْراتِ ، وَشَجَرةَ فاكِهةٍ ، فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ ، وَجَلَسْتُ طَلَبًا لِلرّاحةِ .

جَلَسْتُ أُفَكِّرُ : « عَلَيَّ بِٱلانْتِظارِ إلى حينِ قُدومِ سَفينةٍ لا تَكونُ وِجْهَتُها ٱلمَدينةَ ٱلَّتي كُنْتُ فيها ، ما دامَ ٱلطَّعامُ وَٱلماءُ مُتَوَفِّرَيْنِ . أَيَحْسُنُ بي أَنْ أَعودَ إلى كَهْفِ ٱلمَوْتى لِأُخْرِجَ بَعْضَ ٱلجَواهِرِ ؟ وَلٰكِنْ إذا عُدْتُ فَهَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَسْتَدِلَّ عَلى طَريقِ ٱلخُروجِ ؟ »

ٱلجَواهِرُ وَٱلسَّفينةُ

تَذَكَّرْتُ ٱلحِبالَ فَقُلْتُ لِنَفْسي : « لَوْ صَنَعْتُ حَبْلًا طَويلًا مِنْ هٰذِهِ ٱلحِبالِ ٱلقَصيرةِ ، فَسَيُساعِدُني في ٱلدُّخولِ إلى ٱلكَهْفِ وَٱلخُروجِ مِنْهُ . » وَعَلى ٱلفَوْرِ صَنَعْتُ ٱلحَبْلَ ، وَدَخَلْتُ ٱلكَهْفَ عِدَّةَ مَرّاتٍ ، وَأَخْرَجْتُ آلافَ ٱلجَواهِرِ وَوَضَعْتُها في أَكْياسٍ صَنَعْتُها مِنَ ٱلقُماشِ ٱلَّذي كانَ مَلْفوفًا حَوْلَ أَجْسادِ ٱلمَوْتى . وَبَقِيتُ في ٱنْتِظارِ سَفينةٍ تَمُرُّ .

وَجاءَ ٱلفَرَجُ ، عِنْدَما رَسَتْ سَفينةٌ لِتَتَزَوَّدَ بِٱلماءِ . وَرَوَيْتُ لِلرُّبّانِ بَعْضَ ما حَدَثَ لي ، دُونَ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِقِصَّتي في ٱلمَدينةِ خَشْيَةَ أَنْ يَكونَ بَيْنَ ٱلرُّكّابِ أَحَدٌ مِنْ سُكّانِها . وَقَدَّمْتُ بَعْضَ ٱلجَواهِرِ هَدِيَّةً إلى ٱلرُّبّانِ ، فَٱعْتَذَرَ عَنْ عَدَمِ قَبولِها قائلًا : « إنَّنا نَحْنُ أَبْناءَ ٱلبَصْرةِ إذا وَجَدْنا مَنْ قَذَفَتْ بِهِ ٱلرّيحُ أَوِ ٱلبَحْرُ عَلى أَيَّةِ جَزيرةٍ ، حَمَلْناهُ عَلى سُفُنِنا وَقَدَّمْنا لَهُ ٱلطَّعامَ وَٱلماءَ وَٱلكِساءَ . وَلا نَبْخَلُ عَلَيْهِ بِتَوْصيلِهِ إلى بَلَدِهِ . وَلَيْسَ مِنْ شيَمِنا أَنْ نَتَقاضى أَجْرًا ، أَيًّا كانَ ، مِنْ أَحَدٍ . وَكُلُّ ما نَعْمَلُهُ لَيْسَ إلّا في سَبيلِ ٱللهِ . »

نِهايَةُ ٱلرِّحْلَةِ ٱلرّابِعَةِ

بَلَغَتِ ٱلسَّفينةُ مِيناءَ ٱلبَصْرةِ في ٱلوَقْتِ ٱلمُحَدَّدِ لَها ، فَغادَرْتُها إلى بَغْدادَ ، وَقَدْ فَرِحَ بي أَهْلي وَأَصْدِقائي . وَتَصَدَّقْتُ بِٱلمالِ وَٱلثِّيابِ وَٱلطَّعامِ عَلى ٱلفُقَراءِ ، وَقَدَّمْتُ ٱلعَوْنَ لِلْمُحْتاجينَ .

عُدْتُ وَقُلْتُ : « لَنْ أُغادِرَ مَدينَتي بَعْدَ آلآنَ ، وَستَكونُ هٰذِهِ آخِرَ رِحْلةٍ لي في دُنْيايَ . »

وَلٰكِنّي نَقَضْتُ آلعَهْدَ ، وَلَمْ أَلْتَزِمْ بِما وَعَدْتُ ، وَلي حَديثٌ مَعَكُمْ أَيُّها آلأَصْدِقاءُ ، غَدًا إنْ شاءَ آللّٰهُ .

آلرِّحْلةُ آلخامِسةُ

تَذَكَّرْتُ ، في حينِهِ ، مَحاسِنَ رِحْلاتي ، وَلَمْ أَتَذَكَّرْ مَساوِئَها .

فَفي يَوْمٍ مِنَ آلأَيّامِ ، رَأَيْتُ جَماعةً يَبْنونَ سَفينةً كَبيرةً ، فَاشْتَرَيْتُها مِنْهُمْ ، وَأَبْحَرْتُ عَلَيْها ، وَمَعي بَعْضُ آلتُّجّارِ ، في رِحْلَتي آلخامِسةِ . وَقَدْ تَنَقَّلْنا مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزيرةٍ إلى أُخرى نَبيعُ وَنَشْتَري وَنُمَتِّعُ أَعْيُنَنا بِجَمالِ آلطَّبيعةِ .

وَفي أَحَدِ آلأَيّامِ ، رَسَتْ بِنا آلسَّفينةُ عَلى جَزيرةٍ كَبيرةٍ ، لَمْ نُشاهِدْ فيها إنْسانًا أَوْ حَيَوانًا أَوْ نَباتًا . وَنَزَلَ آلتُّجّارُ إلى آليابِسةِ لِيَجُولُوا في آلجَزيرةِ . وَبَيْنَما هُم يَجُولُون ، تَوَقَّفُوا عِنْدَ شَيْءٍ ضَخْمٍ ، أَبْيَضِ آللَّوْنِ ، شَديدِ آلشَّبَهِ بِآلقُبَّةِ . فَصَرَخْتُ فيهِمْ أَلّا يَمَسُّوا ذٰلِكَ آلشَّيْءَ لِأَنَّهُ بَيْضةُ رُخٍّ . وَنَصَحْتُهُمْ بِآلِابْتِعادِ عَنْها قَبْلَ فَواتِ آلأَوانِ .

وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعُوا إلى نُصْحي ، بَلْ أَخَذُوا يُحْدِثونَ بِها ثَقْبًا ، لِيَعْرِفُوا ما بِداخِلِها ؛ وَإذا بِصَوْتٍ كَالبُكاءِ يَنْبَعِثُ مِنْ داخِلِ آلبَيْضةِ . كانَ فَرْخُ آلرُّخِّ يَلْفِظُ أَنْفاسَهُ آلأَخيرةَ . وَمِنْ أَعالي آلجَوِّ سُمِعَ صُراخُ رَدًّا عَلى صُراخِ فَرْخِ آلرُّخِّ . وَانْقَلَبَ آلنَّهارُ إلى لَيْلٍ ، حِينَما حامَ في آلجَوِّ رُخٌّ ضَخْمٌ وَرَفيقَتُهُ ، فَتَوَقَّعْتُ هَلاكَنا جَميعًا ، وَلٰكِنَّهُما طارا بَعيدًا . وَفي آلحالِ ، طَلَبْتُ مِنَ آلتُّجّارِ آلعَوْدَةَ بِأَقْصى سُرْعةٍ ، لِنُبْحِرَ بَعيدًا عَنِ آلجَزيرةِ وَنَنْجُوَ بِأَنْفُسِنا .

سَفينَتي تَتَحطَّمُ

اسْتَمَعَ ٱلتُّجَّارُ إلى نَصيحَتي ، وَأَقْلَعَتْ بِنا ٱلسَّفينةُ إلى عُرْضِ ٱلبَحْرِ وَقَدْ خَطَرَ بِبالي أَنْ أَسْأَلَ نَفْسي : « هَلْ سَنُفْلِتُ مِنْهُما ؟ » وَقَبْلَ أَنْ أُتِمَّ سُؤالي ، شاهَدْنا ٱلرُّخَّيْنِ يَعودانِ ، يَحْمِلُ ٱلواحِدُ مِنْهُما صَخْرَةً كَبيرةً بِحَجْمِ ٱلبَيْتِ . وَماهِيَ إلَّا لَحَظاتٌ ، حَتَّى أَخَذَ رُخٌّ يَحُومُ فَوْقَنا ، ثُمَّ أَلْقى بِٱلصَّخْرةِ عَلَيْنا ، وَلٰكِنَّ الرُّبَّانَ اسْتَطاعَ أَنْ يَتَفاداها ، فَسَقَطَتْ في ٱلبَحْرِ ، وَارْتَفَعَتْ مِياهُهُ ، وَكَأَنَّها ٱلجِبالُ ، وَأَخَذَتْ تَقْذِفُ بِٱلسَّفينةِ هُنا وَهُناكَ .

لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلرُّبَّانُ أَنْ يَتَفادَى ٱلصَّخْرةَ ٱلثّانيةَ ٱلَّتي سَقَطَتْ عَلى ٱلسَّفينةِ ، فَكَتَبَتِ ٱلسَّطْرَ ٱلأَخيرَ مِنْ حَياةِ سَفينَتي ٱلجَديدةِ . وَقَدْ لَقِيَ مُعْظَمُ ٱلتُّجَّارِ وَٱلبَحّارةِ حَتْفَهُمْ . وَكُلُّ ما أَذْكُرُهُ أَنّي وَجَدْتُ نَفْسي في صِراعٍ مَعَ ٱلبَحْرِ ، لَمْ يُنْقِذْني مِنْهُ إلَّا لَوْحٌ خَشَبيٌّ مِنْ حُطامِ ٱلسَّفينةِ كانَ طافِيًا عَلى مَقْرَبةٍ مِنّي ، فَتَشَبَّثْتُ بِهِ .

كانَ لِهٰذا ٱللَّوْحِ ٱلخَشَبيِّ ٱلفَضْلُ في إنْقاذي ، وَخاصَّةً عِنْدَما دَفَعَتْني ٱلرّيحُ وَٱلأَمْواجُ إلى شاطِئِ جَزيرةٍ بَلَغْتُهُ بَعْدَ أَرْبَعةِ أَيّامٍ بِلَيالِيها . وَحَمِدْتُ اللهَ عِنْدَما وَجَدْتُ جَدْوَلَ ماءٍ عَذْبٍ ، وَأَشْجارَ فاكِهةٍ . وَأَسْرَعْتُ أَقْطِفُ ٱلثِّمارَ وَآكُلُها ، وَأُعَبُّ مِنْ ماءِ ٱلنَّهْرِ .

شَيْخُ ٱلبَحْرِ

سِرْتُ أَبْحَثُ في ٱلجَزيرةِ ، لَعَلّي أَجِدُ بَشَرًا يُقيمُونَ فيها . وَلَمْ يَطُلْ بي ٱلسَّيْرُ ، إذْ رَأَيْتُ عَجوزًا بَدا لي مَريضًا واهِنًا . عِنْدَها قُلْتُ لِنَفْسي : « تُرى أَيَكونُ هٰذا ٱلعَجوزُ بَحّارًا تَحَطَّمَتْ سَفينَتُهُ ، وَقَذَفَتْ بِهِ ٱلأَمْواجُ إلى هٰذِهِ ٱلجَزيرةِ ؟ »

كانَ ٱلعَجوزُ يَجْلِسُ عَلى مَقْرَبةٍ مِنْ جَدْوَلِ ٱلماءِ . وَلَمّا اقْتَرَبْتُ مِنْهُ ، حَيَّيْتُهُ وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمةٍ . وَكَلَّمْتُهُ ثانيةً ، فَٱلْتَزَمَ ٱلصَّمْتَ ، وَاكْتَفى بِتَحْريكِ يَدِهِ ناحيةَ جَدْوَلِ ٱلماءِ . وَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ يُريدُني أَنْ أَعْبُرَ بِهِ ٱلجَدْوَلَ إلى ٱلضِّفَّةِ ٱلأُخْرى ، فَحَمَلْتُهُ عَلى ظَهْري ، اسْتِعْدادًا لِاجْتِيازِ ٱلماءِ . لٰكِنَّهُ فَجْأَةً أَحاطَ عُنُقي بِساقَيْهِ ٱللَّتَيْنِ كانَتا – عَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ هُزالِهِما – صُلْبَتَيْنِ قَوِيَّتَيْنِ .

وَلَمّا حاوَلْتُ إنْزالَهُ ، رَكَلَني بِقَدَمِهِ ، وَشَدَّ عَلى عُنُقي بِيَدَيْهِ وَساقَيْهِ حَتَّى كادَ يَعْصِرُها ، وَارْتَسَمَ شَبَحُ ٱلمَوْتِ أَمامَ عَيْنَيَّ . وَقَدْ بَقِيتُ عَلى تِلْكَ ٱلحالِ أَيّامًا . وَكُنْتُ في ٱللَّيْلِ أَنامُ عَلى ٱلأَرْضِ وَساقاهُ حَوْلَ عُنُقي ، وَفي ٱلنَّهارِ ما كُنْتُ أُناوِلُ فاكِهةً أَوْ أَشْرَبُ ماءً إلَّا حَسَبَ مَشيئَتِهِ . وَلَمْ يُكَلِّمْني قَطُّ ، بَلْ كانَ يَعْمِدُ إلى رَكْلي بِقَدَمِهِ لِأَفْعَلَ ما يُريدُهُ مِنّي .

وَذاتَ يَوْمٍ ، وَجَدْتُ فاكِهةً مُخَدِّرةً كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ عَنْها في بَعْضِ أَسْفاري . فَتَناوَلْتُ ثَمَرةً وَتَظاهَرْتُ بِأَنّي آكُلُ مِنْها . ثُمَّ رُحْتُ أَتَمايَلُ فَرَحًا ، وَأَقولُ : « ما أَحْلى هٰذِهِ ٱلثَّمَرةَ ! آهٍ لَوْ آكُلُ مِنْها ٱلكَثيرَ ! » وَلَمّا سَمِعَني

آلعَجوزُ ، رَكَلَني بِقَدَمِهِ ، وَأَشارَ إلى آلفاكِهةِ ، فَأَعْطَيْتُهُ مِنْها . وَلَمَّا اسْتَحْسَنَ مَذاقَها ، أَخَذَ يَأْكُلُ مِنْها بِشَرَهٍ إلى أَنْ تَراخَتْ ساقاهُ مِنْ حَوْلِ عُنُقي ، وَفَقَدَ وَعْيَهُ . عِنْدَئِذٍ أَلْقَيْتُ بِهِ أَرْضًا ، وَدَقَقْتُ رَأْسَهُ بِحَجَرٍ .

سِرْتُ إلى شاطِئِ آلبَحْرِ حَيْثُ وَجَدْتُ سَفينةً ، نَزَلَ بَعْضُ بَحّارَتِها لِيَتَزَوَّدُوا بِالماءِ آلعَذْبِ . وَلَمَّا رَوَيْتُ لَهُمْ ما حَدَثَ لي ، قالُوا : « إنَّ آلعَجوزَ آلَّذي رَأَيْتَهُ ، هُوَ شَيْخُ آلبَحْرِ . وَما مِنْ أَحَدٍ قَبْلَكَ ، لَفَّ آلشَّيْخُ ساقَيْهِ حَوْلَ عُنُقِهِ ، إلَّا ماتَ . لَقَدْ قَضَى عَلى كَثيرٍ مِنَ آلبَحّارةِ بِنَفْسِ آلطَّريقةِ . وَفي كُلِّ مَرَّةٍ نَقْصِدُ آلجَزيرةَ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ مَعَنا تِسْعةٌ أَوْ عَشَرةٌ مِنَ آلبَحّارةِ لِخَوْفِنا مِنْ شَيْخِ آلبَحْرِ . »

سَأَلْتُهُمْ : « لِماذا إذًا تَجيئونَ إلى هٰذِهِ آلجَزيرةِ ؟ »

أَجابُوني : « نَجيءُ لِنَجْمَعَ ثِمارَ جَوْزِ آلهِنْدِ . تَعالَ مَعَنا وَمَعَكَ أَكْياسٌ كَبيرةٌ لِجَوْزِ آلهِنْدِ ، وَكيسٌ صَغيرٌ مَمْلوءٌ بِآلحِجارةِ آلصَّغيرةِ . »

آلقُرودُ وَجَوْزُ آلهِنْدِ

أَخَذْتُ مَعي ما طَلَبوهُ مِنّي ، وَسِرْنا إلى غابةٍ مِنْ أَشْجارِ جَوْزِ آلهِنْدِ ، وَهِيَ أَشْجارٌ شَديدةُ آلِارْتِفاعِ ، مَلْساءُ آلجُذوعِ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ تَسَلُّقَها ، وَجَميعُ ثِمارِها في أَعْلاها حَيْثُ نَرى آلقُرودَ .

بَدَأْنا نَرْجُمُ آلقُرودَ بِآلحِجارةِ ، فَاغْتاظَتْ وَأَخَذَتْ تَقْذِفُنا بِثِمارِ جَوْزِ

آلهِنْدِ . وَتَجَمَّعَتْ لَدَيْنا كَمِّيَّةٌ كَبيرةٌ في وَقْتٍ لَيْسَ بِطَويلٍ ، وَأَخَذْنا نَنْزِعُ قُشورَها ، وَنَمْلَأُ بِالثِّمارِ أَكْياسَنا . وَعِنْدَما أَخَذَتِ آلسَّفينةُ حُمولَتَها ، أَبْحَرَتْ بِنا إلى جُزُرِ آلقُمُرِ وَآلجُزُرِ آلقَريبةِ مِنْها ، حَيْثُ بِعْنا ما مَعَنا بِثَمَنٍ مُرْتَفِعٍ ، وَاشْتَرَيْنا بِالثَّمَنِ أَخْشابًا وَأَشْياءَ أُخْرى غَيْرَها حَمَلْناها إلى آلبَصْرةِ .

وَقَدْ عُدْتُ مِنْ رِحْلَتي هٰذِهِ ، إلى وَطَني ، أَكْثَرَ ثَراءً مِمَّا كُنْتُ قَبْلَ قِيامي بِهٰذِهِ آلرِّحْلةِ . وَفي بَغْدادَ ، تَصَدَّقْتُ عَلى آلفُقَراءِ وَآلمُحْتاجينَ وَقَطَعْتُ عَلى نَفْسي عَهْدًا أَلَّا أَعودَ إلى آلبَحْرِ . وَلٰكِنِّي عُدْتُ فَأَخْلَفْتُ آلوَعْدَ ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ غَدًا ، إنْ شاءَ آللّٰهُ ، عَمَّا فَعَلْتُ .

آلرِّحْلَةُ آلسَّادِسَةُ

لَمْ تَكُنْ لي رَغْبَةٌ في مُعاوَدةِ رُكوبِ آلبَحْرِ ، وَلٰكِنَّ رَغْبَتي آلشَّديدةَ في مُشاهَدةِ بَعْضِ بُلْدانِ آلهِنْدِ ، حَمَلَتْني عَلى عَدَمِ آلِالْتِزامِ بِما وَعَدْتُ . وَلَمْ تَمْضِ إلَّا أَيَّامٌ ، حَتَّى جَهَّزْتُ نَفْسي لِلسَّفَرِ ، فاشْتَرَيْتُ حاجَتي مِنَ آلبَضائِعِ ، وَاصْطَحَبْتُ بَعْضَ آلخَدَمِ لِمُساعَدَتي في رِحْلَتي . وانْطَلَقَتِ آلقافِلةُ بَرًّا ، وَزُرْنا كُبْرَياتِ آلمُدُنِ ، حَيْثُ كُنْتُ أَبيعُ فيها وَأَشْتَري . وَواصَلْنا سَيْرَنا حَتَّى بَلَغْنا مَصَبَّ نَهْرِ آلغانْج آلعَظيمِ ، حَيْثُ وَجَدْتُ سَفينةً تُوشِكُ عَلى آلقِيامِ بِرِحْلةٍ طَويلةٍ إلى آلجَنُوبِ وَآلشَّرْقِ .

كانَتْ تِلْكَ آلرِّحْلةُ آلطَّويلةُ مَشْؤومةً . فَقَدْ هَبَّتْ عَلَيْنا ريحٌ عاصِفةٌ ، فانْحَرَفَتِ آلسَّفينةُ عَنْ مَسارِها . وَتُهْنا في عُرْضِ آلبَحْرِ ، وَأَصْبَحْنا تَحْتَ رَحْمةِ آلرِّيحِ ، تَسوقُنا أَمامَها ، كَما يَسوقُ آلرَّاعي قَطيعَ آلغَنَمِ ، وَبِأَقْصى سُرْعةٍ .

وَلَمْ يَتَمالَكِ آلرُّبَّانُ نَفْسَهُ حينَ أَخَذَ يَصْرُخُ قائِلًا : « إنَّنا مَيِّتونَ لا مَحالةَ . » ثُمَّ انْتَزَعَ عِمامَتَهُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ ، وَأَلْقى بِها أَرْضًا ، وَأَخَذَ يَضْرِبُ رَأْسَهُ بِكِلْتا يَدَيْهِ ، وَلِسانُهُ لا يَنْفَكُّ يَقولُ : « إنَّها نِهايَتُنا ! هَلْ تَرَوْنَ ذٰلِكَ آلجَبَلَ آلشّاهِقَ ؟ إنَّ فيهِ كَهْفًا يَبْتَلِعُ مِياهَ آلبَحْرِ بِما فيها مِنْ سُفُنٍ . وَلَمْ يُقَدَّرْ لِإِنْسانٍ – حَتَّى آلآنَ – أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ حَيًّا . »

اَلإنسياقُ إلى آلكَهْف

حاوَلَ آلبَحّارةُ أَنْ يَخْرُجوا بِالسَّفينةِ مِنْ بَيْنِ آلأَمْواجِ آلمُتَلاطِمةِ ؛ وَلٰكِنَّهُمْ أَخْفَقوا . وَسَرْعانَ ما أَخَذَتْ سَفينَتُنا تَقْتَرِبُ مِنَ آلكَهْفِ ، وَمِياهُ آلبَحْرِ تَتَدَفَّقُ في جَوْفِهِ ، وَبِسُرْعةٍ مُتَزايِدةٍ . وَما هِيَ إلّا دَقائِقُ مَعْدودةٌ ، حَتّى ارْتَطَمَتِ آلسَّفينةُ بِجُدْرانِهِ آلصَّخْرِيَّةِ ، وَتَحَطَّمَتْ تَمامًا . وَاسْوَدَّ كُلُّ شَيْءٍ حَوْلَنا .

أَخَذْتُ أُحَدِّثُ نَفْسي قائِلًا : « إمّا أَنّي قَدْ مِتُّ فِعْلًا أَوْ أَنَّني مُشْرِفٌ عَلى آلمَوْتِ . »

كُنْتُ في ظَلامٍ دامِسٍ ، لا أَرى ما يَدورُ حَوْلي ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كانَ أَشَدَّ سَوادًا مِنَ آللَّيْلِ آلبَهيمِ . لٰكِنّي كُنْتُ أَسْمَعُ صَوْتَ ماءٍ يَجْري جَرْيًا سَريعًا ، وَأَسْمَعُ رِياحًا تَهُبُّ . وَهٰأَنَذا أَتَحَرَّكُ فَوْقَ جِسْمٍ صُلْبٍ ، وَلَيْسَ في آلماءِ . إذًا أَيْنَ أَنا ؟ لَقَدْ أَصْبَحَتِ آلدُّنْيا ظَلامًا في ظَلامٍ ، وَطالَتْ رِحْلَتي في ذٰلِكَ آلمَكانِ آلسُّفْلِيِّ آلأَسْوَدِ . وَاسْتَسْلَمْتُ لِنَوْمٍ عَميقٍ .

سَرَنْديب

لَمْ أَسْتَيْقِظْ إلّا عَلى أَصْواتٍ تَصيحُ وَتَصْرُخُ حَوْلي . وَلَمّا فَتَحْتُ عَيْنَيَّ ، وَجَدْتُ نَفْسي راقِدًا عَلى ظَهْري فَوْقَ لَوْحٍ مِنَ آلخَشَبِ ، عِنْدَ ضِفَّةِ نَهْرٍ عَظيمٍ ، وَحَوْلَيَ جَمْعٌ مِنَ آلنّاسِ يَنْظُرونَ إلَيَّ بِدَهْشةٍ ، وَكانوا هُمْ مَصْدَرَ آلصُّراخِ آلَّذي أَيْقَظَني .

سَأَلْتُ آلواقِفينَ : « أَيْنَ أَنا ؟ » إلّا أَنَّهُمْ لَمْ يُجيبوا عَنْ سُؤالي لِجَهْلِهِمُ آللُّغةَ آلعَرَبيَّةَ . وَفي آلحالِ أَرْسَلُوا يَطْلُبونَ رَجُلًا يَعْرِفُ آلعَرَبيَّةَ بَعْضَ آلشَّيْءِ . وَحالَ وُصولِهِ أَنْبَأَني بِأَنّي في بِلادِ مَلِكِ سَرَنْديبَ (سريلانكا) فَحَمِدْتُ آللهَ عَلى أَنّي في بَلَدِ مَلِكٍ عَظيمٍ ، سَمِعْتُ عَنْهُ وَعَنْ بَلَدِهِ آلشَّيْءَ آلكَثيرَ .

أَضافَ آلرَّجُلُ قائِلًا : « نَجيءُ إلى هٰذا آلمَكانِ لِتَحْويلِ قَنَواتِ آلرَّيِّ مِنْ هٰذا آلنَّهْرِ إلى مَزارِعِنا . وَيَنْبُعُ آلنَّهْرُ مِنْ سِلْسِلةِ آلجِبالِ تِلْكَ . وَحَتّى هٰذِهِ آللَّحْظةِ لَمْ يَتَسَنَّ لِأَيِّ إنْسانٍ مِنْ هُنا أَنْ يَصْعَدَ تِلْكَ آلجِبالَ ، كَما لَمْ يَجِئْنا أَحَدٌ مِنْ قِمَمِ تِلْكَ آلجِبالِ . وَآلآنَ ، قُلْ لي : كَيْفَ وَصَلْتَ إلى هٰذا آلمَكانِ ؟ »

إلـى آلمَـلِكِ

رَوَيْتُ لَهُ قِصَّةَ رِحْلَتي آلسّادِسةِ ، وَقامَ هُوَ بِتَرْجَمَتِها إلى آلحاضِرينَ ، وَكانَتْ عُيونُهُمْ مُثَبَّتةً عَلَيَّ . وَما إنْ وَصَلَ إلى نِهايَتِها ، حَتّى عَلا صُراخُهُمْ ، وَرَدَّدوا كَلِماتٍ لَمْ أَفْهَمْها ، تَرْجَمَها لِيَ آلرَّجُلُ كالتّالي : « عَلَيْكَ أَنْ تَقُصَّ حِكايَتَكَ عَلى آلمَلِكِ ، وَسَنَأْخُذُكَ إلَيْهِ في آلحالِ . » ثُمَّ قَدَّموا لِيَ آلطَّعامَ وَآلماءَ ، وَأَرْكَبوني جَوادًا . وَبَعْدَ مَسيرةِ ثَلاثةِ أَيّامٍ ، بَلَغْنا آلعاصِمةَ . وَقَدِ اسْتَقْبَلَني آلمَلِكُ في آلقاعةِ آلمَلَكِيَّةِ ، وَرَحَّبَ بي ، وَأَصْغى بِاهْتِمامٍ إلى قِصَّتي . ثُمَّ أَمَرَ آلخَدَمَ بِتَخْصيصِ حُجْرةٍ لي تُجاوِرُ آلقاعةَ آلمَلَكِيَّةَ ، وَتَزْويدي بِأَفْضَلِ آلثِّيابِ ، وَتَقْديمِ أَشْهى آلمَأْكولاتِ ، وَتَوْفيرِ ما أَحْتاجُ

إلَيْهِ . وَكانَ يَسْتَدْعيني يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، لِيَسْتَمِعَ إلى أَحْداثِ رِحْلاتي آلسِّتِّ ، وَما رافَقَها مِنْ أَهْوالٍ وَمَخاطِرَ . وَلَمْ يَغِبْ عَنْ بالِهِ أَنْ يَسْأَلَني عَنْ بَغْدادَ ، فَحَدَّثْتُهُ عَنْها بِإفاضةٍ .

رِسالـةٌ مِنَ آلمَلِكِ

ذاتَ يَوْمٍ ، عَلِمْتُ بِوُصولِ سَفينةٍ إلى آلعاصِمةِ ، وَهِيَ في طَريقِها إلى آلبَصْرةِ ، فَأَذِنَ لِيَ آلمَلِكُ أَنْ أَرْكَبَها . وَمَنَحَني آلهَدايا آلثَّمينةَ مِنْ ذَهَبٍ وَماسٍ وَجَواهِرَ وَغَيْرِها ، وسَلَّمَني رِسالةً مَلَكِيَّةً وَهَدايا ثَمينةً إلى أَميرِ آلمُؤْمِنينَ ، آلخَليفةِ هارونَ آلرَّشيدِ . وَكانَ عُنْوانُ آلرِّسالةِ آلمَلَكِيَّةِ :

« مِنْ مَلِكِ سَرَنْديب ، وَمَلِكِ جُزُرِ آلهِنْدِ آلشَّرْقِيَّةِ ، وَآلمَلِكِ آلأَكْبَرِ ، إلى أَخيهِ آلخَليفةِ هارونَ آلرَّشيدِ آلعَظيمِ . »

وَكانَتْ هَداياهُ إلى آلخَليفةِ مِنَ آلذَّهَبِ وَآلجَواهِرِ ، وَأَشْياءَ أُخْرى فائِقةِ آلجَمالِ ، جيءَ بِها مِنْ غاباتِ سَرَنْديب وَمَزارِعِها ، لَمْ تَرَ آلعَيْنُ مَثيلًا لَها في أَسْواقِ بَغْدادَ .

وَكانَتْ رِحْلَتي إلى آلبَصْرةِ مُمْتِعةً ، خاصَّةً وَأَنا أَحْمِلُ رِسالةً مَلَكِيَّةً وَهَدايا إلى آلخَليفةِ هارونَ آلرَّشيدِ ، آلَّذي أَحْسَنَ اسْتِقْبالي ، وَاسْتَمَعَ إلى حِكايَتي ، وَتَلَطَّفَ في آلحَديثِ مَعي .

آلرِّحْلةُ آلسَّابِعةُ

ما كُنْتُ أَنْوي آلقِيامَ بِأَيَّةِ رِحْلةٍ أُخْرى ، أَيُّها آلأَصْدِقاءُ . وَلا تَنْسَوْا أَنَّ تَقَدُّمَ آلسِّنِّ يَدْعُو ني إلى قَضاءِ ما تَبَقَّى مِنَ آلعُمْرِ في وَطَني ، بَيْنَ أَهْلي وَأَحِبَّائي ، وَآلعَيْشِ في بَيْتي وَبَيْنَ حَدائِقي في مُنْتَهى آلسَّعادَةِ .

وَفي يَوْمٍ مِنَ آلأَيَّامِ ، وَأَنا مَعَ أَصْدِقائي ، بَعَثَ إلَيَّ آلخَليفةُ هارونُ آلرَّشيدُ يَسْتَدْعيني . وَلَمَّا مَثَلْتُ أَمامَهُ ، قالَ لي : « أُريدُكَ أَنْ تَحْمِلَ جَوابي وَهَدايايَ إلى مَلِكِ سَرَنْديبَ . » فَأَجَبْتُهُ : « لَكَ مِنِّي آلسَّمْعُ وَآلطَّاعةُ ، يا أَميرَ آلمُؤْمِنينَ ! وَسَأَمْتَثِلُ إلى أَمْرِكَ في آلحالِ . »

انْصَرَفَ رِجالُ آلخَليفةِ إلى آلبَحْثِ عَنْ أَحْسَنِ سَفينةٍ ، وَأَعَدُّوها لِلسَّفَرِ . وَعِنْدَما طابَتِ آلرِّيحُ ، أَبْحَرْتُ حامِلًا جَوابَ آلخَليفةِ وَأَنْفَسَ آلهَدايا آلَّتي يَجِدُها آلمَرْءُ في أَسْواقِ بَغْدادَ وَآلإِسْكَنْدَريَّةِ وَآلقاهِرةِ وَمُدُنِ آلمَغْرِبِ .

وَلَدى وُصولي إلى سَرَنْديبَ ، اسْتَقْبَلَني آلمَلِكُ أَحْسَنَ اسْتِقْبالٍ ، وَفَرِحَ بِلِقائي أَشَدَّ آلفَرَحِ . وَأَعْرَبَ لي عَنْ عَظيمِ سَعادَتِهِ بِخِطابِ آلخَليفةِ وَهَداياهُ آلَّتي لاقَتْ حُسْنَ آلقَبُولِ لَدَيْهِ . وَكُنْتُ مَوْضِعَ رِعايَتِهِ بِما غَمَرَني مِنْ فَيْضِ كَريمِ أَخْلاقِهِ . وَاسْتَأْذَنْتُهُ لِلسَّفَرِ ، فَحَمَّلَني آلكَثيرَ مِنَ آلهَدايا ، وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ رِجالُ مَمْلَكَتِهِ .

اَلْقَراصِنــةُ

بَعْدَ ثَلاثةِ أَيَّامٍ مِنْ إبْحارِنا ، خَرَجَ عَلَيْنا مِئاتُ اَلقَراصِنةِ في بِضْعةِ زَوارِقَ ، وَاسْتَوْلَوْا عَلى سَفينَتِنا ، وَاتَّجَهوا بِها إلى إحْدى اَلجُزُرِ ، وَباعُونا إلى تُجَّارِها . وَكُنْتُ مِنْ نَصيبِ تاجِرٍ طَيِّبٍ أَحْسَنَ مُعامَلَتي .

سَأَلَني يَوْمًا : « هَلْ تُحْسِنُ اَلرِّمايةَ ؟ » وَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بِالإيجابِ ، اسْتَأْنَفَ كَلامَهُ قائِلًا : « حَسَنًا ! فَالنِّظامُ اَلمُتَّبَعُ في هٰذا اَلبَلَدِ يُلْزِمُ كُلَّ أَسيرٍ ، بَعْدَ بَيْعِهِ ، بِأَنْ يَقومَ بِصَيْدِ اَلأَفْيالِ . وَعِنْدَ بَيْعِ اَلأَنْيابِ ، يَتَقاضَى اَلقَراصِنةُ جُزْءًا مِنْ أَثْمانِها . وَسَآخُذُكَ اَللَّيْلةَ إلى اَلغابةِ لِتَبْدَأَ عَمَلَكَ هُناكَ . »

صَيْدُ اَلأَفْيالِ

في اَلغابةِ ، طَلَبَ إلَيَّ صُعودَ شَجَرةٍ ، ثُمَّ قالَ : « عَلَيْكَ بِالاِنْتِظارِ إلى حينِ اقْتِرابِ اَلأَفْيالِ ، فَتُطْلِقُ بَعْدَها سَهْمَكَ عَلى أَحَدِها . وَسَأَجيئُكَ غَدًا صَباحًا لِأَعودَ بِكَ وَنابِي اَلفيلِ إلى اَلمَدينةِ . »

وَانْتَظَرْتُ فَوْقَ اَلشَّجَرةِ طَويلًا ، إلى أَنِ اقْتَرَبَ فيلٌ مِنَ اَلشَّجَرةِ ، وَأَطْلَقْتُ عَلَيْهِ سَهْمًا فَقَتَلْتُهُ . وَفي اَلصَّباحِ جاءَني اَلتَّاجِرُ ، وَسُرَّ كَثيرًا عِنْدَما رَآني وَرَأى جُثَّةَ اَلفيلِ . وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ سُرورِهِ بِقَوْلِهِ : « يَسُرُّني أَنَّكَ مِنْ خِيرةِ اَلرُّماةِ ، وَقَدْ أَحْسَنْتَ صُنْعًا بِقَتْلِكَ إيَّاهُ ، فَلَوْ لَمْ تَقْتُلْهُ ، لَقَتَلَكَ . »

وَبَعْدَ ظُهْرِ ذاكَ اَليَوْمِ ، لَقِيتُ رَجُلَيْنِ أَسَرَهُما اَلقَراصِنةُ مِنْ سُفُنٍ أُخْرى . وَكانَ عَمَلُهُما مِثْلَ عَمَلي وَهوَ صَيْدُ اَلأَفْيالِ . وَدارَ اَلحَديثُ بَيْنَنا ، وَمِمَّا

قالَا : « إنَّنا لا نَطْمَعُ في ٱلعَيْشِ طَويلًا ، حَتَّى وَلَوْ بَرَعَ ٱلواحِدُ مِنَّا في ٱلصَّيْدِ ، لِأَنَّ ٱلأَفْيالَ لا يُؤْمَنُ جانِبُها . وَٱلمَعْرُوفُ عَنِ ٱلفيلِ أَنَّهُ حَيوانٌ ذَكيٌّ ؛ وَلا غَرابَةَ أَنْ تَثْأَرَ ٱلأَفْيالُ لِقَتْلاها مِنْ قاتِليها . »

فَكَّرْتُ فيما سَمِعْتُهُ مِنْهُما ، وَقُلْتُ لِنَفْسي : « يَنْبَغي أَلَّا أَصْعَدَ إلى ٱلشَّجَرةِ مَرَّتَيْنِ ؛ كَما يَجِبُ أَنْ أَتَحاشَى إطْلاقَ ٱلسِّهامِ عَلى قَطيعٍ مِنْها ، وَعَلَيَّ أَلَّا أُخْطِئَ ٱلهَدَفَ وَأَنْ أُصيبَ مِنَ ٱلفيلِ مَقْتَلًا . »

مَضى عَلَيَّ زَمَنٌ طَويلٌ وَأَنا أَصْطادُ فيلًا في كُلِّ لَيْلةٍ . وَكانَ سُرورُ ٱلتَّاجِرِ كَبيرًا ، عَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : « إنَّكَ أَفْضَلُ صَيَّادٍ عِنْدي . وَاعْتِبارًا مِنْ هٰذا ٱليَوْمِ سَيَكونُ نَصيبُكَ نابًا مِنْ كُلِّ عَشَرَةٍ . وَإذا تَجَمَّعَ لَدَيْكَ مِئةُ نابٍ ، أَطْلَقْتُ سَراحَكَ لِتَعودَ إلى بَلَدِكَ . »

وَعِنْدَما بَلَغَ ما لَدَيَّ قَرابَةَ مِئةِ نابٍ ، كُنْتُ عَلى ٱلشَّجَرةِ وَأَطْلَقْتُ سَهْمًا عَلى فيلٍ ، وَلٰكِنّي لَمْ أُصِبْ مِنْهُ مَقْتَلًا .

وَفي ٱللَّيْلةِ ٱلتّالِيةِ ، ٱمْتَلَأَتِ ٱلغابَةُ بِضَجيجِ مِئاتِ ٱلأَفْيالِ ٱلَّتي كانَتْ تَبْحَثُ عَنّي . وَسَرْعانَ ما أَحاطَتْ بِشَجَرَتي ، فَصَعِدْتُ إلى أَعْلاها . ثُمَّ أَخَذَتْ تَقْتَرِبُ قَليلًا قَليلًا ، وَمَعَ هٰذا لَمْ أُحاوِلْ إطْلاقَ سِهامي عَلَيْها . وَأَخيرًا لَفَّتْ خَراطيمَها حَوْلَ ٱلشَّجَرةِ وَٱقْتَلَعَتْها مِنْ جُذورِها ، وَحَمَلَني أَكْبَرُها عَلى ظَهْرِهِ . وَسارَتْ قافِلةُ ٱلأَفْيالِ مِنْ وادٍ إلى وادٍ ، وَبِشَكْلٍ عَسْكَريٍّ بِحَيْثُ كانَ ٱلواحِدُ وَراءَ ٱلآخَرِ .

وادي ٱلأَفْيـالِ

وَفي وادٍ يَقَعُ بَيْنَ ٱلجِبالِ ، تَوَقَّفَتِ ٱلأَفْيالُ عَنِ ٱلسَّيْرِ . عِنْدَها تَذَكَّرْتُ ما قَدْ سَمِعْتُهُ في زَماني بِأَنَّ جُموعَ ٱلأَفْيالِ تَذْهَبُ إلى مَكانٍ خاصٍّ وَتَموتُ فيهِ بِشَكْلٍ جَماعيٍّ . وَكُنْتُ لا أُصَدِّقُ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ ، ها قَدْ تَحَقَّقَ قَوْلُهُمْ . فَٱلمِئاتُ بَلِ ٱلآلافُ مِنَ ٱلأَفْيالِ قَدْ ماتَتْ هُنا . وَهاهِيَ ذي جُثَثُها تُغَطّي ٱلأَرْضَ .

أَحاطَتْ بي ٱلأَفْيالُ وَعُيونُها جَميعًا مُصَوَّبةٌ نَحْوي ، وَلٰكِنْ لَمْ يَمَسَّني أَحَدُها بِسُوءٍ . وَكانَتْ عُيونُها هِيَ ٱلَّتي تُحَدِّثُني ، وَلَوْ كانَتْ لَها ٱلمَقْدِرةُ على ٱلكَلامِ لَقالَتْ لي : « لِمَ تُطْلِقونَ ٱلسِّهامَ عَلَيْنا مِنْ أَجْلِ أَنْيابِنا ؟ ٱنْظُرْ حَوْلَكَ . ماذا تَرى ؟ طَبْعًا ، تَرى ٱلأَنْيابَ ، وَهٰذِهِ ٱلأَنْيابُ لَسْنا بِحاجةٍ إلَيْها . هَيَّا خُذْ مِنْها ما تَشاءُ وَقُلْ لِأَهْلِ ٱلمَدينةِ أَنْ يَكُفّوا عَنْ قَتْلِنا . »

وَقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَجْعَلَها تَفْهَمُ أَنّي مُدْرِكٌ قَصْدَها . قامَتِ ٱلأَفْيالُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِإرْشادي إلى طَريقِ ٱلعَوْدةِ إلى ٱلمَدينةِ . وَفي ٱليَوْمِ ٱلتّالي اصْطَحَبْتُ ٱلتّاجِرَ إلى مَقْبَرةِ ٱلأَفْيالِ . وَهُناكَ نَظَرَ حَوْلَهُ وَنَظَرَ ، ثُمَّ قالَ لي : « في هٰذِهِ ٱلمَقْبَرةِ مِنَ ٱلأَنْيابِ ما يَشْغَلُ تُجّارَ ٱلمَدينةِ مِئةَ سَنةٍ . » وَتَوَقَّفَ سُكّانُ ٱلجَزيرةِ ، بَعْدَئِذٍ ، عَنْ صَيْدِ ٱلأَفْيالِ .

وَقَدْ مَلَأُوا لي سَفينةً بِأَنْيابِ ٱلأَفْيالِ كَيْ أَبيعَها في ٱلبَصْرةِ وَبَغْدادَ ، ثُمَّ أَبْحَرْتُ إلى وَطَني ، وَكانَتْ هِيَ ٱلرِّحْلةَ ٱلأَخيرةَ مِنْ رِحْلاتي .

مُغامَرات
السِّنْدِبادِ البَحْري

المغامرات المثيرة

١ ــ مغامرة في الأدغال
٢ ــ مغامرة في الفضاء
٣ ــ مغامرة أسيرين
٤ ــ مغامرة في الجزيرة الخضراء
٥ ــ مغامرة على الشاطىء
٦ ــ الجاسوس الطائر
٧ ــ لصوص الطريق
٨ ــ حمد الغواص الشجاع
٩ ــ اللصان الغبيان
١٠ ــ مطاردة لصوص السيارات
١١ ــ مغامرات السندباد البحري
١٢ ــ لعبة خطرة
١٣ ــ الحشرة الذهبية وقصص أخرى
١٤ ــ اللؤلؤة السوداء
١٥ ــ سر الجزيرة

L.1500

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 211

عرب كوميكس
www.arabcomics.net